القزم العاشق

تأليف
ميشال زيفاكو



المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

ميشال زيفاكو

العاشق القزم

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٢٧

- ١ -

العاشق القزم

ملك الفرح كل جوارح القـزم لما حصل عليه من المال ، وهو الذي اهدته اليه فوستا ، جزاء مكره ببارداليان ورفيقه (التوريرو) وسرفانتس، وجلبهم الى قصرها ، فغادر المنزل الى آخر الحديقة حيث تسلق شجرة من شجرات السرو أخفى فيها كيس المـال ، ثم قفز من سروة أخرى الى خارج السور المحيط بالمنزل ، وذهب فجلس على الحشيش المرتفع بحيث لم يعد يظهر شيء من جسمه ، ووضع رأسه بين يديه واخذ يفكر •

وبعد دقائق تحرك من مكانه وراح يدور حول المنزل ، لا يحـاول كتم حركاته ولا صوت قدميه ، كأنما يريد توجيه الانظار اليه ، حتى سمع زفيرا وأبصر جسمين موضوعين على مقربة من الحـائط وهما يتحركان بشدة ، فابتسم بمكـر ، وأسرع نحـو الجسمين فشاهد رجلين ملفوفين ومربوطين بالحبال من الرأس الى الاقدام ، فأسرع نحو الاول ففك قيوده، فاذا به يرى (التوريرو) امامه •

تظـاهر القزم بالدهشة ، ولكن (التوريرو) كان في شاغل عنـه فصاح به :

ــ هيا اسرع وساعدني •

فلما استوى على قدميه اسرع الى صديقه سرفانتس ففك قيـوده وهو يقول :

ــ هيا بنا سريعا قبل ان يفوت الوقت •

ولكن سرفانتس كان تعبا فقد انهكه الرباط حتى كاد يخنقه فاضطر رفيقه الى التريث قليلا ، واخذ يفرك يديه وجسمه بمساعدة القزم حتى عاد الدم يجري في عروقـه ، وعندئذ فطن التوريرو الى ان القـزم وقف امامه ، فدهش وسأله :

ــ ما الذي تفعله هنا ، وقد اتفقنا على ان تقف لمراقبة الباب ؟

فقال القزم :

ــ لقد ساورني القلـق لتأخركم ، فأسرعت أدور في الحديقة حتى عثرت عليكما في هذه الحالة ، ولولاي لما استطعتما النجاة منها •

فقال سرفانتس :

ــ صدقت •• هيا بنا يا عزيزي سيزار الى حيث تريد ، فقد تمالكت نفسي ، ونشطت أعضائي •

وكان التوريرو في قلـق عظيم على صديقـه بارداليان وصديقتـه (جيرالدا) فلما مضى الصديقان نحو المنزل حدث (التوريرو) صديقه بما وقع لهما وكيف ان بارداليان قد هاجم المنزل وحده ، وعلينا الاسراع بمساعدته •

ولما وصلا الى الباب السري قفزا الى الحديقة فوق جداره ، وتقدما نحو المنزل وقد جاء سرفانتس بالقزم معه ، وهو يقول :

ــ الافضل ان يكون هذا القزم معنا فذلك اضمن لطمأنينتي •

وتقدم الثلاثة نحو باب المنزل ، وسبقهما القزم الى السلم فتبعاه ، ورفع (التوريرو) الباب فانفتـح امامه ، فدخلوا ، فشاهدوا مصباحـا

فضيا ينير الرواق ، فتقدمــوا نحو ستارة ازاحهــا التوريرو فاذا هو في الغرفة التي كانت فوستا فيها حين استقبلت القزم واعطته مكافأته • كما جاء في الكتاب السابق •

وكانت الغرفة ايضا منارة بمصباح فضي ، فدهش سرفانتس لروعة الاثاث ونفاسته ، وقال في نفسه :

ــ لا بد ان يكون هذا المنزل لاحد كبار الامراء •

تجاوزا الغرفــة الى رواق آخر ، دون ان يصادفا احدا او يسمعا صوتا ، وكان التوريرو يتقدم الرجلين ، فصادف بابا امامه ففتحه ، ولم يكد يلقي نظره على ما بداخله حتى صاح من الفرح ، لانه وجد (جيرالدا) نائمة نوما عميقا بتأثير المخــدر ، فحملها واخذ بمناداتها ، وهو يهزهــا ويحركها ، حتى تنهدت وعادت الى وعيهــا وفتحت عينيها ، فلما وجدت لدون سيزار امامها هتفت تقول :

ــ يا سيدي العزيز •

واخذ العاشقان يقبّل الواحــد الآخر ، وقد نسيا انفسهما ، حتى نبههما سرفانتس الى انه لا يجب علينا ان ننسى بارداليان •

وعندئذ عاد (التوريرو) لنفسه وسأل الفتاة عن بارداليان فقالت انها لم تره •

سألها دهشا :

ــ كيف لم ترينه ، وهو الذي قفز الى النافذة لانقاذك ؟

ــ كلا يا سيدي •• فان احدا لم يتقدم لانقاذي لاني كنت في تمام حريتي •

ــ اذا كنت كما تدعين ، فما سبب نومك هنا ؟

ــ لقدكنت بانتظارك يا سيدي •

وازدادت دهشة الشاب ، واخذ ينظر الى صديقتـه وهو لا يدري ما يقول .. واما القزم فقد لزم الصمت كأن الامر لا يعنيه .

وعاد الدون سيزار (التوريرو) يقول :

ــ ان ما سمعته منك عجيب غريب يا عزيزتي ... لكن من الذي أنبأك بأني سوف أزورك في هذا المكان ؟

ــ الاميرة .

ــ اية اميرة ؟

ــ لست ادري فهي لم تذكر اسمها .. وهي جميلة جدا وصديقة مخلصة .. وقد وعدتني بمجيئك ، وها انت قد جئت .

فقال سرفانتس :

ــ سوف نبحث هذا السر في المستقبل ، وعلينا الآن ان نفتش هذا المنزل للبحث عن بارداليان .

وصاحت جيرالدا :

ــ لماذا تريــدون تفتيش المنزل وليس فيه احد ، بعد ان برحتـه الاميرة مع رجالها كما أنبأتني .

فقال التوريرو :

ــ هيا بنا نتحقق الامر بأنفسنا .

* * *

تناول القزم مشعلا وتقدمهما .

داروا على الغرف ونزلوا اخيرا الى الاقبيــة ، فلم يعثروا على اثر لبارداليان .

وكان الدون سيزار قد شاهد بارداليان يقفز الى الغرفة لذلك مضى

يبحث ويفتش ، وينقل الامتعة من مكانها ، ويمس الجدران ويتحسس كل مكان ، ولكن مساعيه ذهبت ادراج الرياح •

ورغما عن تظاهر القزم بعدم المبالاة ، الا ان من يراقبه كان يلاحظ انه حين كان يسمع اسم (بارداليان) تشرق عيناه باشمة غريبة ، تدل على نفوره من هذا الاسم وصاحبه •

واخيرا قرر الرجلان الذهاب بالفتاة الى منزلها ، ثم يذهبان الى منزليهما ليأخذا بعض الراحة ، حتى اذا طلع الصباح ذهبا الى الاميرة لسؤالها عن بارداليان •

وفي الطريق قال القزم :

ــ من يدري فقد يكون الفارس بارداليان قد عاد الى النزل •

فقال الدوق سيزار :

ــ ان بارداليان لا يفعل ذلك ويتركنا •• ومع هذا فسنذهب لنرى اذا كان قد عاد حقا •

وبرقت عينا القزم سرورا ، وفي الطريق سأل الشاب الفتاة عن الذي خطفها فقالت :

ــ انه كريستوبال ، وجماعته •

فقال :

ــ ولكن كريستوبال لا يفعل هذا الامر لحسابه الخاص •

فقالت :

ــ صدقت فهو الدرع الامين لصاحب اللحية الشقراء •• ولكنه في هذه المرة لم يعمل لحساب صاحبه ، بل لحساب الاميرة •

ــ كيف ولماذا ؟

ــ انت تعلم اني كنت اعمل ابدا للتفتيش عن والديّ ، وقد عرفت هذه المرة ان والديّ توفيا ، وانهما كانا من عامة الشعب •

« وقد تعمـدت وانا صغيرة ، ولما كان والدي من الفقـراء ، فقد تركاني وشأني فأصبحت نورية وما انا كذلك » .

فسر التوريرو من هذا الحديث وقال فرحا :

ــ ان هذه المعلومات يا جيرالدا لا تقدر بثمن ، لانها تنجيك من تهمة الهرطقة التي كنت مهددة بها .. ولكن لماذا خطفتك الاميرة ؟

ــ ان الاميرة لم تأمر باختطافي ، ولكنها انقذتني من الخطف كما فهمت منها .. حين عرفت ان كريستوبال يريد خطفي ليأخذني الى ذي اللحية ، ولما كان كريستوبال يخضع لها اكثر مما يخضع لصاحب اللحية فقد جاء بي اليها ، وكانت تعرفني ، ورأتني وشاهدت رقصاتي ، فكان ان قررت انقاذي ، واحتفظت بي في منزلها ، لانها اخبرتني ان شخصا احبه سوف يتعرض للخطر اذا اجتمعت به خلال الاربعة والعشرين ساعة المقبلة ، وانه سوف يأتي الى هذا المنـزل ويأخذني منه .. كما عرفت منها انها تعرفك وتعرف عائلتك ايضا .

ودهش الدوق سيزار وقال :

ــ وهل ذكرت لك اسم والدي ؟

ــ لا .. لانها لن تقوله الا لك .

ــ هل قالت لك انها سوف تطلعني على هذا السر ؟

ــ نعم .. عندما تزورها وتسألها .

فكاد الشاب يطير من الفرح وصرخ قائلا :

ــ من لي بأن تشرق الشمس لاذهب الى الاميرة واسألها.. واعرف اخيرا اسم والدي والعائلة التي انتمي اليها .

وكان سرفانتس يسمـع هذا الحديث ولا يقـول شيئا ، ويسأل نفسه :

ـ من تكون هذه الاميرة التي تعرف كل هذه الاسرار ؟ وما دخلها فيما لا يعنيها ؟ ولماذا تريد اطلاع الامير على سر مولده ؟ ان افصاح هذا السر سوف يقود صديقنا الى الموت •

ولما وصل الاصدقاء الثلاثة الى النزل الذي يقيم فيه باردااليان لم يجدوه فيه ، وكانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل •

وقد فتح الباب فجأة كأنما صاحب النزل وابنته بانتظار القادمين •

وحين شاهد القزم ابنة صاحب النزل اصفر وجهه ، واخذ ينظر اليها نظرات الاعجاب والوله الشديد •

واما الفتاة واسمها (حنة) فقد كانت تعتبر القزم لعبة من ألاعيبها ، حتى اذا ضاقت ذرعا بها طرحتها جانبا ، وكان القزم راضيا عن هذه المعاملة ، شرط ان يظل بقربها ، وان تلعب به حين تشاء •

وكانت حنة في السادسة عشرة من عمرها ، قصيرة القامة نحيفة الجسم ، خفيفة الحركة ، لطيفة الروح ، سمرّت شمس اسبانيا لون محياها ، كثيرة الاهتمام بزينتها يحبها ابوها حب عبادة ، ويبذل ما في وسعه لارضائها •

وبدت امارات القلق على وجه حنة لما نظرت الى القادمين ، ونظرت الى الخارج كأنما تبحث عن شخص آخر ، ضاق صدرها لغيابه •• وراحت تفكر وقد شغل بالها تأخره •

وفجأة سألها التوريرو :

ـ هل عاد الفارس باردااليان ايتها العزيزة ؟

فارتجفت حنة حين سمعت هذا السؤال وهمست بصوت يكاد يخنقه التأثر :

ـ كلا يا سيدي •

فقال الشاب :

ــ لقد كنت على يقين من ذلك .
وبدا التأثر على وجه التوريرو ونظر الى سرفانتس حزينا يائسا .
وقالت حنة :
ــ لقد كان الفارس باردليان معكم ايها السادة .. فأرجو ان لا يكون قد تعرض لأذى ؟.
وقال سرفانتس بقلق :
ــ هذا ما نرجوه ايتها العزيزة .. وسنتأكد من هذا الامر قريبا .
ارتجفت (حنة) حين سمعت هذا الجواب ، وكادت تسقط الى الارض ، فأخذتها الخادمة الى غرفتها ، ومضى القزم الى المطبخ بعد ان لاحظ اضطراب (حنة) ويأسها وراح يفكر وهو لا يدري ما يعمل .

* * *

لقد تربى القزم معها ، حين ضمّه والدها اليه ، بعد ان فقد والديه، فكان لها العبد المطيع والعاشق الصامت .. الذي يخضع خضوعا أعمى لكل نزواتها .

وحين اخذ ايراد النزل بالازدياد وكبر القزم كلفه صاحب النزل بالعمل فيه ، وكان العمل الذي عهدوا به اليه يفوق طاقته ، ولكنه كان يقوم به ارضاء لحنة ونزولا عند رغبتها .

ولكن خدم النزل اخذوا يمضون في تعذيبه ، ويكلفونه ما يشاؤون ويريدون فهرب من النزل ، وعاش متشردا متسولا على ابواب الكنائس، يأكل قليلا ، وينام في الطريق او في اية حفرة من الحفر .
وحين علم صاحب النزل بهربه ، وتأكد منه ، انهال عليه بالشتائم

والسباب ، واتهمه بالكسل وكفر النعمة ، وتكهن بأنه سيأتي يوم يموت فيه حرقا او شنقا .

ولم يكن القزم خائنا ، ولكن شكره كان منصبا على الشخص الوحيد الذي احبه وعطف عليه ، وهو (حنة) .. وكان كثيرا ما يزول (النزل) ويقف غير بعيد يراقبها وينظر اليها .

وفي ذات يوم التقى بحنة فوبخته على هربه ، وتركه لها ،فكاد يجن من الفرح حين ادرك انها تهتم به ، وقال لها :

ــ لقد جئت لاراك فليس هناك غيرك افكر به .. ولم انسك ابدا ..

وقال لها : انه لم يظهر بنفسه بعد هربه ، خوفا من ان يضربه والدها ويطرده الخدم .

ومضت تنتقد ملابسه وقذارته ، فبكى من التأثر ، فرقت نفسها وقالت له :

ــ الست انت الذي كنت تضع ابدا الزهور تحت نافذتي ؟

فاعترف لها بأنه هو الفاعل .. وانه فعل هذا حتى تدرك انه لم ينساها .

فعرضت عليه البقاء في النزل ، وانها سوف تكلم والدها ، ولن يكلفونه بعد اليوم من الاعمال الا ما يروقه ويطيقه .

فاعتذر بأنه لا يريد ان يكون بعد اليوم عالة عليها وعلى والدها .. فقبلت اعتذاره ، ودعته لزيارتها بين وقت وآخر .. بدلا من القدوم متخفيا .

وكان حديثها معه طربا لينا فخر جاثيا وقبّل حذاءها شاكرا ، وقال:

ــ لقد كنت وما تزالين مولاتي الصغيرة يا سيدتي .

فسألته ان يأتي معها لتكلم والدها بشأنه ، فوعدها ان يفعل غدا

بعد ان يبدل ملابسه ، وقبلت عذره ، وجاءها في اليوم التالي بثوب نظيف، فدهشت لمظهره ، ودهش الجميع ، واما كيف حصل على المال اللازم لشراء الملابس ، فسر لم يتحدث به الى احد •

واخذ بعد اليوم يعتني بمظهره ، كما اخذ يقدم لحنة بعض الهدايا في الاعياد والمناسبات •

* * *

كان القزم يفكر بهذه الماضيات من اعوامه وهو جالس قرب الموقد •• فيما كانت (حنة) تقوم بالعناية بضيوفها ، ثم شاهدها تضطرب عندما عرفت بتأخر بارداليان ، ورأى الخادمة تأخذها الى غرفتها ، ثم شاهدها تغادر غرفتها بعد قليل الى الطابق الارضي حيث ذهبت الى المطبخ وجلست على كرسي فيه ، والدموع تترقرق من عينيها •

واقبل القزم الذي كان يراقبها فجلس امامها لا يدري ما يفعل ، وهو يتعذب مثل عذابها ، حتى تمكن اخيرا من ان يسألها :

ـ هل تتعذبين كثيرا يا سيدتي الصغيرة ؟

اخذت تبكي حين سمعت سؤاله •

وأدرك القزم سبب بكائها ، وعرف انها ان باحت له بسرها مزقت فؤاده ولكن سعادتها كانت قبل سعادته ، وكان مستعدا للتضحية بنفسه في سبيلها •

سألها اخيرا :

ـ هل تحبينه كثيرا يا سيدتي الصغيرة ؟

رفعت رأسها بحزن وقالت :

ـ لست ادري •• لا اعلم اذا كنت احبه ، ولكني اكره اعداءه

الذين يلاحقونه ويطاردونه ، والذين قادوه الى كمين لقتله وهو الرجل الباسل القوي .. نعم اني اكره هؤلاء القتلة الاشرار الملعونين .

كانت تقول هذا الكلام وهي تضرب الارض بقدميها ، وتصيب ضرباتها القزم فلا يبالي ، ولو سحقته لما تحرك من مكانه ، غير انه كان شديد الاصفرار حين سمع منها انها تكره الذين كادوا لبارداليان وتمقتهم وتلعنهم .

وأدرك انها لو عرفت سره لبصقت في وجهه وطردته ، فلا يبقى امامه غير الانتحار والموت .

وعادت (حنة) تقول :

ــ لست ادري اذا كنت احبه ، ولكني اشعر بأني سأموت اذا قضي عليّ بأن لا أراه .

واخذ القزم يبكي .. وقد انسحق قلبه ، وهتف يقول :

ــ لست اريد ان تموتي .. لست اريد .. وخطر له خاطر فجائي .. فانتصب واقفا وهو يقول :

ــ اصغي اليّ يا مولاتي .. اذهبي ونامي ، وسأذهب الآن لآتيك به غدا .

ما كادت تسمع كلماته هذه حتى انتصبت واقفة وقالت نه بلهجة التهديد والوعيد :

ــ اذاً فأنت تعرف مكانه .. ومطلع على سره ، لانك انت الذي أنيت واستدعيته ، وانت الذي حرضته على اللحاق بالدون سيزار فماذا عملوا به ؟ تكلم ايها الشقي ؟

امسكته من تلابيه ، واخذت تشد عليه .

جمجم يقول بصوت خافت :

ـ لقد المتيني يا سيدتي .. واقسم لك اني لا اعرف شيئا عن سره، ولكني سأبحث عنه اكراما لك .. وانا واثـق من ان احدا لن يستطيع انقـاذه سواي .. لاني على قصر قامتـي امر في كل مكان فلا يفطن لي انسان ، فانتظري الى صباح الغد .

اخذته بين ذراعيها وقالت :

ـ ليتك تكون صادقا في قولك ليزيد حبي لك .

وتمالكت نفسها وارادت ان تبعث الآمل في نفس القزم حين سألته ماذا ستفعلين بعد عودته ، فقالت :

ـ ستبقى انت لي وحدك ، لانك تستحق حبي اكثر من سواك .

وسرت في قرارة قلبها ان بعثت هذا الامل في نفس القزم .

- ٢ -

نجـاة بارداليـان

لما غادر القزم النزل راح يفكر كيف يستطيع انقـاذ بارداليان بعد ان هلك بالتأكيد .

وبعد ان فكر قليلا قال لنفسه :

ــ لقد وعدت مولاتي حنة ، وعليّ ان ابر بوعدي .. وسأذهب واتفقد المخابىء في المنزل ، فاذا كان بارداليان على قيـد الحياة حملتـه اليها .. فاذا ماتت كما تقول مت بدوري .

وعاوده التفكير ، بأنه قد اصبح غنيا ، وقد وعدته فوستا ان تزوجه من حبيبتـه ، وهي صادقـة .. فاذا كان الامر كذلك فلماذا لا يقتـل بارداليان ويستريح منه ، هذا اذا كان لا يزال حيا .

ولما وصل الى باب منزل النسرو ، وجد البـاب مقفـلا .. فأدرك ان فوستا ، لا بد ان تكون قد عادت الى منزلها ، واقفلت الباب خلفها .

دار حول سور الحديقة حذرا ، حتى وصل الى مكان بحث في ارضه قليلا .. فعثر على حبل على رأسه شنكل .. لا بد انه كان قد وضعـه

بيده ، فألقاه بعد ان أداره الى شجرة قريبة فعلق بها ، فتسلق بمساعدته السور ، ونزل الى الحديقة .

توجه الى السروة التي اخفى فيها كيس المال ، فوضعه في صدره ، ثم عاد من حيث أتى ، واخفى الحبل في مكانه .

ثم مضى نحو النهر ، بعد ان أدار نظره فيما حوله فلم يشاهد احدا .

وكانوا قد اقاموا في ذلك المكان من النهر شبه رصيف ، بنوه بالحجارة الكبيرة .

وعلى مقربة من الارض حيث لا تصل ماء النهر فوهة سوداء يحجبها باب حديدي تتخلله القضبان الضخمة .

وتقدم القزم نحو الباب ونزع أحد قضبانه بمهارة ، وانسل من الفتحة التي كان يعسر على غيره الدخول فيها ، ثم أعاد القضيب الحديدي الى مكانه .

وجد نفسه في شبه رواق مفروش بالرمل الناعم واطيء السقف مما اضطر القزم نفسه الى احناء رأسه للسير فيه .

وكان هذا الرواق في الماضي وحين كان العرب في الاندلس ، يستعمل لجر مياه النهر الى الاملاك والمنازل ، ولما دالت دولة العرب في الاندلس ، واصبح هذا المنزل القائم فوق الممر ، في حوزة امير جديد ، غيّروا مجرى النهر ، وجعلوا المجرى الاول ممرا سريا ، يستعملونه لحفظ خط رجعتهم ، عند حدوث ثورة او انقلاب .

وقطعوه الى عدة محلات بجدران ضخمة سميكة ، ووضعوا في كل حائط عدة ثقوب تفتح بحركة خفية سرية .

وضاع سر هذه الثقوب مع الايام حتى فوستا نفسها لم تكن تعرف

بها ، حين استأجرت هذا المنزل ، ولولا ذلك لاتخذت من الاحتياطات ما يدفع عنها غوائلها •

وكان القزم كما يبدو عارفا بكل اسرار هذا النفق ومداخله ، لانه ذهب يمضي فيه غير متردد ولا حذر •

ولا بد انه اكتشف هذا المكان بطريق الصدفة وحين كان يبحث عن مكان ينام فيه ، آمنا من غدر اللصوص والقتلة •

ولما كان ذكيا ، فقد راح عندما اكتشف المكان يتفقده وينقب فيه حجرا بعد حجر ، حتى تمكن من معرفة اسراره والاطمئنان الى سلامتـه فيه ، عندما تدعو الحاجة الى ذلك •

وبعد ان تقـدم قليلا ، وصل الى اسفل سلم حجري كثير الضيق ، فتسلق منه عشر درجات ، ثم توقف حين اصاب السقف رأسه •

فأخذ عندئذ يتحسس درجـات السلم بيديه ، حتى سمع حركـة خفيفة •

وارتفعت البلاطة التي فوق رأسه فدخل في شبه كوة وهو يقـول بصوت عال :

ــ « لقد وصلت الى منزلي » •

ولم يحاول ان يلتفت حولـه ، لانه كان واثقا ان البلاطـة سوف تقفل من نفسها ، فتقدم خطوتين وجلس قرب احد الاعمدة ، وجس ّ بيده بلاطة منه ، فدار المحرك الذي دخـل منه من تلقاء نفسه ، وظهرت امامه فوهة صغيرة اضطر لاحناء رأسه ليدخلها واخيرا اشعل شمعة كانت معه فأنارت المكان الذي دخل اليه ، فاذا هو ضيق متوسط الارتفاع ، فيه صندوق وضعت فوقه فرشتان صغيرتان ، وعلى مقربة منه صندوق آخر، فيه اقفال صغيرة ، وطاولة وكرسيان •

هذا هو منزل القزم ، وصفناه صادقين ، وهذا كل ما كان فيه من الاثاث والرياش ، وكان قائما تحت قصر فوستا ، ولما أثار شمعته اقفل درفة النافذة التي كان يأتيه الهواء منها ، مخافة ان تزور (فوستا) الاقبية فتشاهد النور .

وبعد ان وضع القزم كيس الذهب على الطاولة ، جلس فوق كرسي واخذ يفكر .

★ ★ ★

وكان الفارس بارداليان قد استغرق في هذه الاثناء في نوم عميق كما بسطنا ذلك في كتاب سابق ، من اثر المادة الفازية التي نشرتها فوستا في غرفته .

ولكن هذه المادة لم تكن سامة ، وانما كانت مخدرة فقط ، فكان ان عاد بارداليان لوعيه بعد ساعات ، ولم يعجب حين وجد نفسه لا يزال حيا ، لانه كان يتوقع ان يتغلب على الموت وفوستا معا .

وأدرك في الوقت نفسه انه لا بد ان يكون لهذا المكان ممر سري ، فراح يبحث عنه .

راح يجس الجدران الاربعة ويتحسس بيده كل بلاطة .

ولكنه ما لبث ان احس بالتعب ، فاستلقى في مكانه قليلا ليأخذ بعض الراحة .

وفجأة سمع صوتا ..

فألصق أذنيه في الارض وأخذ يستمع .

وخيّل اليه ان فوستا قد ارسلت اليه جماعة سمع اصواتهم واحاديثهم ، ليتأكدوا من موته .

وسأل نفسه : فيما اذا كان يملـك القـوة الكافيـة ، لمقاومتهم ومحاربتهم •

وفجأة أبصر بلاطة تتحرك امامه بخفـة ، فاقترب منها مسرعا وجثا على ركبتيه قريبا منها •

شاهدها ترتفع بيد غير منظورة ، وبارتفاعها حجبت باردليان الذي كان جاثيـا على الارض ، والذي ثبت في مكانه مستعدا ليدق رأس اول داخل عليه •

ولكنه بدلا من مشاهدت بعض الرجال المسلحين شاهد القزم يدخل الى نفق قريب منه ، بعد ان ترك البلاطة لا يعيدها الى مكانها •

فكان باردليان يراه وهو في مكانه ، دون ان يفطن القزم لوجوده• وعرف باردليان القزم وسمعه يقول :

ـ ها قد اصبحت في منزلي •

وسأل نفسه ، فيما اذا كان القزم ينام حقا في هذا المكان •

زحف باردليان على بطنه واقترب من باب القزم •

واعجب بمهارة القزم في ترتيب هذا المكان الضيق •• ونسي حقده على القزم ، وما كان يعرفه من تعاونــه مع اعدائه ، لطمره في هذا المكان حيا •

لم يحاول انذاره ، وتركه يحسب نفسه وحده •

وشاهده يفرغ الكيسَ المليء بالذهب ويعدّ قطعه •

ثم يقول :

ـ لم تكذب عليّ الامـيرة واعطتني خمسة آلاف قطعة ذهبيـة بالتمام والكمال •

وارتعش باردليان حين سمع هذا الكلام ••• وعلم ان الاميرة هي فوستا ، وان هذا الذهب هو ثمن الخيانة التي قام بها القزم نحوه •

ثم شاهد باردالیان القزم یخرج کیسا من الصندوق ویعد ما فیه من الذهب وهو يقول :

ــ لقد صرت غنيا .. ولكن ما نفع هذه الثروة وحنة لا تحبني بل تحب الفرنسي .

وقال باردالیان لنفسه :

ــ لقد عرفت شيئا لم اكن اعرفه ، فهذا القــزم عاشق وغيــور ، فيا له من مسكين .

وعاد القزم يحدث نفسه قائلا :

ــ وقد مات الفرنسي الذي تحبه حنة .

فضحك باردالیان عندئذ .. وتحسس جسمه ، فتاكــد له انه حي يرزق .

وقال القزم .

ــ ما الذي سأفعله بهذا الذهب .. وانا لا استطيع الوصول الى حنة ؟ خير سبيل لاتفاقه هو في شراء بعض الجواهر لها .

ولكنه ما لبث ان عاد يقول بعد ان قطّب وجهه :

ــ لا .. لا يجب ان افعل ذلك ، لان حنة قد تعجب لوجود مثل هذا الذهب معي ، ولما كانت عظيمة الذكاء ، فقد تدرك مصدره ، وتبصق في وجهي وتطردني .

« هذا الذهب ملعون ، لانه ثمن دم ، ولن استطيع الإفــادة منه ، وقد صرت مجرما آثما من غير جدوى » .

والقى بالكيس ارضا فتناثر الذهب هنا وهناك .

واخذ يذرع غرفته الصغيرة .. جيئة وذهوبا .

وهو يقول مخاطبا نفسه :

ــ لقد اصبحت قاتلا .. وقد القت حنة هذه التهمة في وجهي ، وهي على حق .

« فقد كنت انا السبب في موت هذا الفرنسي ، اكثر من الذين قتلوه ، لاني كنت المسئول عن جلبه الى هذا المكان » .

« ولكن من يدري .. لعل الفرنسي لم يمت حتى الآن .

« ولعلي استطيع انقاذه كما وجدت (حنة) ان افعل .

« واذا كان الفرنسي قد مات فستموت (حنة) واموت انا بعدها .

« واما اذا كان لا يزال حيا ، وانقذته فان حنة ستكون سعيدة ويحبها الفرنسي .

« ولكن ما لنا ولهذا الآن .. عليّ ان ابحث عنه لعلي استطيع انقاذه » .

ولما سمع بارداليان هذا الكلام انسل عائدا الى مكانه وتمدد على الارض .

ولما استدار القزم يريد الخروج من غرفته ، أبصر بارداليان ممددا على الارض ، في القبو المجاور ، لانه ترك باب غرفته مفتوحا كما قدمنا. فذعر وتخاذلت ركبتاه ، لانه لم يكن يتوقع العثور عليه قريبا من منزله . وتمتم يقول :

ــ كيف لم أره وانا ادخل الى هنا ؟ لقد كانت البلاطة تحجبه فلم أره ، كما لم التفت الى خلفي ، لاني لم اكن اتوقع وجوده في هذا المكان القريب .

واقترب بخفة من بارداليان الذي كان يراقبه من طرف عينه ، وهو يقول :

ــ لعله قد مات .

تقدم خائفا نحو بارداليان فجس قلبه ، فأحس بخفوقه، فوقف متعجبا

كيف استطاع هذا الرجل النوم في هذا المكان ، وهو يعرف المصير الذي اعدوه له .

اخذ يحركه بلطف ، فتظاهر بارداليان بأنه ذعر لهذه الحركة ثم حدّق النظر في وجه القزم وقال له :

ــ هل صرت سجينا مثلي ايها القزم ؟

ــ لست سجينا .

ــ كلا .. اذاً ما الذي تفعله هنا ؟

ــ لقد جئت للبحث عنك ، وانقاذك .

ــ وهل تعرف الطريق لمغادرة هذا المكان ؟

ــ نعم .

واقترب القزم من الباب الحديدي ، ووضع يده على المسامير الحديدية التي كان مصفحا بها .. فارتفع الغطاء من غير حركة .

فسأله بارداليان بصوت هادىء :

ــ هل دخلت من هذا المكان وانا نائم ؟

فأشار القزم برأسه بايجاب .

فقال بارداليان :

ــ ولكني لم اسمع صوت دخولك ! فهل تخرج من هذا الباب ايضا ؟

فقال القزم :

ــ نعم .

فقال بارداليان :

ــ انك قليل الكلام كما يبدو .

فقال القزم :

ــ لنغادر هذا المكان حالا يا سيدي .

ــ مهلا فأمامنا الوقت الكافي .. لقد كنت تعرف اني هنا ما دمت قد اتيت لانقاذي كما تقول ؟

فارتبك القزم ، ولما شاهد نظرات بارداليان قال :

ــ ولكني يا سيدي ، كنت اجهل انك في هذا المكان بالذات .

ــ اذاً ، فلماذا جئت اليه ؟

ــ اني أقيم هنا يا سيدي .

وأشار بيده الى مسكنه .. وفراشه .

وأمسك بالشمعة ليريه مسكنه ونسي الذهب المتناثر على الارض.

وقال بارداليان :

ــ كيف تستطيع العيش في هذا المكان ، الذي يشبه القبور ؟

ــ اني فقير مسكين ، ولا يعاملني الناس معاملة حسنة ، وهنا اكون في مأمن من الجميع .

ــ والذين يسكنون الطوابق العليا .

ــ انهم يجهلون وجودي هنا ، كما يجهلون مداخل هذا المكان ومخارجه .

وعاد القزم ينصح بارداليان بمغادرة المكان ، وهذا يجيبه بأن لا داعي للعجلة .

فيقول له القزم :

ــ ولكني لا استطيع اخراجك من المكان الذي اخرج منه انا ، لانك لست مثلي قصير القامة .

ــ اذاً فأنت تعرف مخرجا غيره .

ــ نعم .. ولكن أخشى ان نصادف اناسا في طريقنا .

ــ وهل هذه الانفاق مأهولة بالسكان ؟

ــ لا ... غير ان بعضهم يجتمع فيها، وهذا اليوم موعد اجتماعهم.

وسأله بارداليان ببرود :
ــ من هم هؤلاء الناس ؟
ــ لست ادري .

* * *

عرف بارداليان انه يكتم عنه الحقيقة ، فقال ببساطة وسذاجة :
ــ ألم تعلم انه كان محكوما عليّ بالموت جوعا هنا ؟
فتظاهر القزم بالخوف والذعر .
ومضى بارداليان يقول :
ــ طبعا هذا هائل ، وما كان هذا ليخطر على بالك لانه من مبتكرات اميرة اعرفها ، ومن حسن الحظ انك لا تعرفها .
واستشعر القزم بهول الجريمة التي ارتكبها ، ثم سمع بارداليان يشكره على انقاذه ، ويطلب منه ان يمد يده الى يده ، لانه سوف يحميه بعد الآن ويساعده فلا داعي والحالة هذه ليبيت في مثل هذا المكان .
وكان ان عاد القزم الى نفسه ، ودفع يد بارداليان عنه ، واخبره انه هو الذي جرّه الى هذا المكان ليموت ، وانه قبض ثمن جريمته هذا الذهب المتناثر على الارض .
وتظاهر بارداليان بالغضب وقال :
ــ اذاً لقد فعلت هذا ايها الوقح .
ــ نعم .
ــ اذاً فاستغفر الله لانك ستموت .
ولم يأت القزم باشارة تدل على انه يريد الدفاع عن نفسه .. بل لعله كان يريد الموت ، يموت هو ويموت مزاحمه على حب حنة معا ..

لانه كان من الصعب على بارداليــان ان يصل الى اسرار هذه الاتفــاق ويخرج سالما حيا من هذا المكان .

ولكن بارداليان لم يحرك ساكنا وراح يضحك فازداد غضب القزم وقال له :

ــ تعال معي لانقذك من هذا المكان ، وثق اني لن احاول الهــرب منك بعد ذلك لان في الموت خلاصي .

فقال بارداليان :

ــ اني اريد قبل كل شيء معرفة السبب الذي دعاك لتقودني الى الموت ؟

ــ لاني اكرهــك وابغضك .. ولو لم اعــد شخصا بتخليصــك لقتلتك .

ــ وبماذا تريد قتلي ايها المسكين ؟

واسرع القزم نحو فراشه فأخرج من تحته خنجرا ، فقهقه بارداليان وصاح :

ــ هذا خنجري .

ــ نعم ولقد سرقته منك حينما كنت تتسلق الحائط .

ــ اذا كنت تريد قتلي فافعل .

ورفع القزم الخنجر ثم ما لبث ان القاه ارضا وهو يقول :

ــ اني لن استطيع .

ــ وما الذي يمنعك ؟

ــ لقد قطعت وعداً بانقاذك .

وقال بارداليان بصوت لطيف :

ــ هل وعدت بذلك يا ولدي ؟

وبكى القزم حين سمع لهجة بارداليان ، وتسميته اياه بولدي واخذ يقول :

ـ يا لي من شقي .. يا لي من تعس .

وكان ان جذب بارداليان القزم اليه وضمه الى صدره ، ولم يكن المسكين قد عرف في حياته صديقا ولا صاحبا عامله مثل هذه المعاملة فتركه يفعل به ما يشاء ، وقد تعجب من شهامته الفائقة ومروءته ، ولعن نفسه لانه حاول الاساءة اليه ، ولما شاهد بارداليان يبتسم كانه من اسعد الناس ، اخذ يضحك مثله .

فقال بارداليان :

ـ هل ادركت يا صديقي اني لست شريرا فدعنا نتصافح ونتحدث.

ـ بعد كل ما فعلته نحوك ؟

ـ كفاك جدلا ومد يدك ، ومتى عرفتني ، سوف تتأكد اني لا امد يدي الى الكثيرين .

واخذا يتحدثان .

وعرف بارداليان من القـزم انه كان يريد قتله لغيرتـه ، من حب (حنة) له ، فأعلمه انه لا يحب (حنة) وان الحب مات في قلبه بعد موت زوجته ، ووعده بمساعدته على الزواج من حنة ، وطلب منه ان يحب حنة من كل قلبه ، وان يحتفظ بالمال الذي اخذه من (فوستا) لمهرها ، فجن جنون القزم لما سمع هذا الكلام، واخذ يحب بارداليان من كل قلبه ويلعن نفسه لانه فكر في قتله .

واخيرا قرر الرجلان مغادرة المكان ، فأعطى القزم بارداليان خنجره ليدافع به عن نفسه عند اللزوم .

- ٣ -

مؤامرة تحت الأرض

لقد انقلب القزم بعد اجتماعه الى بارداليان انقلابا عظيما .

كان يكرهه ويعمل لهلاكه ، فأصبح يريد حياته ، ويفدي نفسه في سبيله بعد ان تأكد من اخلاصه وصدقه واستقامتـه ، وعفوه عنه ، وهو الذي كاد ليقتل ويموت .

وزاد في حبه ما عرفه منه من انه لا يحب (حنة) ولا هو في سبيله الى التقرب منها والتفكير فيها ، بل لقد زاد ندى فوعده ان يساعده في زواجه ، وطلب منه الاحتفاظ بالمال الحرام ليكن هدية لها .

وكذلك اصبح القزم يعتبر بارداليان مولى له وسيدا يطيعه ويعمل ما يأمره به ، دون ما تردد ولا لف ولا دوران .

وبعد ان جمع القزم ثروتــه التي توزعت على ارض الغرفة ، أطفأ الشمعة ، وحرك المحور الذي تدور عليه البلاطة ، وغادر المكان وبارداليان في أثره .

ولم يسر القزم ببارداليان في الطريــق التي أتى منها ، لانه سوف يصعب على بارداليان اجتياز الحواجز الحديدية ، انما سلك به طريقـا

آخر في الظلام ، حتى وصلا الى رواق عريض ، توقف فيه باردليان فجأة لانه شاهد النجوم تظهر من خيال الحائط فسأل رفيقه :

ــ هل اقتربنا من المخرج ؟

اجابه هذا بالنفي ، فتأكد عندئذ باردليان ما يراه لم يكن غير انوار مضاءة ، فجرد خنجره وتحفز للقتال ظنا منه انه سيواجه اعداءهما عما قريب .

وكان القزم يحاول دفع باردليان الى الامام حتى يحجب عنه سر هذه الانوار التي كان عارفا بها ، فزاد هذا في فضول الفارس وقرر معرفة السر وقال لصاحبه :

ــ مهلا عليّ ، فانه يهمني ان اعرف ما يجري هنا .

هتف القزم يقول :

ــ تعال يا سيدي واتبعني .. قبل ان يفوت الوقت .

فأمره باردليان بالسكوت ، وتقدم نحو ثقب كان امامه فشاهد عجبا ، وسمّر في مكانه لهول ما رأى وشاهد .

ولا بد ان القارىء يذكر كيف نزلت فوستا في كتابنا السابق الى هذه الانفاق مع كريستوبال ، وامرته بالنظر من هذا الثقب ، لتؤكد له انها تستطيع وهي في مكانها هذا ان تشاهد وترى ما يجري في القاعة .

ولقد شاهد باردليان عندما نظر الى الثقب نحواً من عشرين رجلا يجلسون على المقاعد ، وأبصر على ركن عال ، ثلاثة اشخاص لا بد انهم كانوا الرئيس ومعاونيه .

وقف الرئيس في هذه اللحظة ، وقال يخاطب الاعضاء :

ــ اتشرف بأن اقدم لكم الطالبة الجديدة ، التي سأنسحب من امامها انا رئيسكم المنتخب لتحل هي محلي ، وتتولى امورنا ، حتى يظهر الذي تعرفونه ؟

واحدثت كلمة الرئيس تأثيرا على الحاضرين ، وتقدمت الطالبة الجديدة لتأخذ مكانها ، ولم تكن غير (فوستا) وقد عرفها باردالیان حالا ، ولما تقدمت نحو المرتبة العالية ، حنى الثلاثة رؤوسهم .

وكانوا كما يظهر من كبار القوم فأثر عملهم في نفوس بقية الاعضاء فوقفوا في مكانهم ، وحيوا رئيستهم الجديدة باحترام كبير .

وقدّم الرئيس السابق الرئيسة الجديدة بقوله :

ـ هذه هي الاميرة فوستا التي كانت تملك على ايطاليا ، وهي تملك ثروة لا تحصى ولا تقدر ، كما انها تعرف كل اسرارنا وتستطيع ان تسمي كل واحد منكم باسمه .

واشتد الهمس بين الحاضرين .. لسماعهم هذا الكلام ، واخذوا ينظرون الواحد للآخر ، وقالت فوستا تطمئنهم :

ـ اطمئنوا ايها السادة فليس من خائن بيننا .. وسركم قد عرفته بنفسي .. لان بلادكم الجميلة تئن وتحتضر تحت وطأة الحكم الجائر المستبد الظالم ، ولا بد لها من ثورة يقوم بها طلاب الاصلاح من المخلصين .

« واما اشخاصكم واغراضكم فقد عرفتها بنفسي لاني شهدت معظم اجتماعاتكم من حيث لا تشعرون » .

وطلبت الاميرة فوستا من الرئيس ان يتكلم وقالت له بصوت عال : تكلم ايها الدوق .

واكد الرجل كلام الاميرة ، من انها عرفت سر الجميع بمفردها وبوسائلها الخاصة ، وانه ليس هناك والحالة هذه خائن بيننا .

واريد ان تعرفوا ايضا ان الرئيس الذي تفتش عليه منذ شهور عديدة ، قد عرفته الاميرة وستقدمه اليكم .

★ ★ ★

اخذ الجميع يصفقون ويهتفون لهذا الخبر الخطير .

وصاحوا جميعا بصوت واحد :

ـ يحيا الدون كارلوس .. يحيا مليكنا .

ومضى الدوق يقول :

ـ ولتعلموا ايضا ان الاميرة سوف تكون زوجة شرعية للدون كارلوس الذي سنجعله مليكنا ، ومتى تم ذلك وضعت تحت امرته كل سلطاته الواسعة ، وثروتها العظيمة .. وستجعل من زوجها المقبل ليس ملكا على اسبانيا فحسب ، وانما ملكا على اوروبا ايضا .

« ولهذا لم اكن مغاليا حين قلت لكم انها هي الرئيسة الحقيقية الجديدة بنا ، ولذلك انا الدون روى غوميز ، والدوق دي كاسترانا ، والحائز على ألقاب أخرى جردني منها ديوان التفتيش ارفع لها في هذا المقام اجلالي واحترامي .. وأحييها ، بقولي :

ـ فلتحيا ملكتنا .

وردد الحاضرون كلامه .

وتقبلت فوستا كل هذه الهتافات بكثير من عدم المبالاة . وان ابتسمت لها قليلا .

وقد ادركت انها قد استطاعت ان تكسبهم اليها ، وانهم اصبحوا يفدونها بأرواحهم .

التفتت الى الدوق تقول :

ـ سوف نعيد اليك كل حقوقك يا دوق ، وستكون من اقرب المقربين الى العرش وكذلك انتم ايها السادة .

وبلغ الحماس اشده بين الحاضرين ، واخذوا يتسارعون لتقبيل يديها او لمس اطرافها .

وهتف بارداليان يقول :

ـ يا لها من ممثلة بارعة .

واخذ يفكر في الدون سيزار الذي اكد له سرفانتس انه ابن الدون كارلوس .. والذي سأله المفتش الاعظم اسبينوزا قتله .. والذي يحب (جيرالدا) ولا يعرف شيئا عن فوستا .. فكيف تستطيع فوستا والحالة هذه اكراهه على الزواج بها ، وهو لا يحبها ومولة بغيرها .

ومضت فوستا تتكلم .

اخبرتهم ان عليهم ان يثوروا للقضاء على الفساد والظلم في اسبانيا ، والقضاء على ديوان التفتيش فيها ، وان كل واحد منهم لا بد يؤثر على عدد من الرجال ، فاذا اتحدت كل هذه الاصوات والايـدي ، اصبحت قوة لا يستهان بها .

ثم اعلمتهـم ان الدون كارلوس رزق ولدا في السر ، وهو حفيـد الظالم المستبد الملك فيليب الثاني ، وفيليب هذا لن يرضخ لغير القوة ، والشعب مستعد للثورة شرط ان يتولى قيادته رجل جسور قوي محبوب منه ، يقبض على الملك فيليب الثاني .

واهتاج الحضور لما سمعوا ، خصوصا حين تعرضت فوستا للملك وهو ما لم يكن احد منهم قد فكر به .

وسأل احدهم :

ـ وماذا نعمل بالملك بعد القبض عليه ؟

كتمت فوستا ابتسامتها .. وأدركت انها فازت على الجميع .

واجابت السائل بهدوء :

ـ نفعل بالملك ما فعلـه ابوه الامبراطور كارلوس ، ونطلب منه الانزواء في احد الاديرة .

ـ ان في الامكان الخروج من الدير .

فقالت فوستا بهدوء مرعب :

ــ ان المكان الذي سنضعه فيه هو نوع من القبر ، لأن الامــوات لا يتركون قبورهم •
كان الجواب صريحا فهمس احدهم يسأل رفيقه :
ــ أنقتل الملك ؟
انتصبت فوستا تقول :
ــ اذا خسرنا فقدنا رؤوسنا جميعا ، واما اذا فزنا فمن العدل ان يدفع الخاسر التعويض ، ورأس واحد خير من رأس مئات •
« فهل بعد هذا الكلام من يقول ان هناك قتلا ؟•• ا ن من يخاف على نفسه •• فعليه ان ينسحب من بيننا » •
لم يتحرك احد من مكانه ، ولزم الجميع الصمت •
ومضت فوستا تقول :
ــ وعليكم ان تعلمــوا ايضا •• اني قد علمت من مصدر موثوق جدا •• ان فيليب الثاني ملك اسبانيا قد نصب كمينا لحفيده كما يسمونه، وبعد غد سوف يقتل (التوريرو) غدرا في مصارعــة الثيران ، واذا فقد بدأ فيليب بسياسة القتل قبلكم •• فهل ترضون ان يقتــل الرجل الذي اخترتموه ملكا عليكم غدرا وغيلة ؟
حدثت ضجة بين الجميع وصاحوا ينكرون وقد راعهم ما سمعوه •
ومضت فوستا تقول :
ــ هل تحققتم الآن ان علينا ان نضرب دون ما شفقة ولا رحمة ، قبل ان تسقط رؤوسنا جميعا ؟
واخذ الجميع يصيحون وينادؤن بالانتقام والثورة •
وعرضت عليهم فوستا اخيرا مشروعا أعدتــه لخطف الملك ، يكفي عشرة منهم لتنفيذه ، ومتى صار في حوزتهم تكفلت هي بالباقي •
وافق الجميع على عرضها هذا ، وعرضوا انفسهم لتنفيذه •

وختمت فوستا حديثها بأن وريث الملك فيليب الشرعي ، هو ابنه الدون كارلوس الابن البكر لابيه ، من الملكة اليزابيت التي توفيت منذ عشرين سنة والتي كانت حاملا في سنة وفاتها هذه من الملك فيليب الثاني، لا من غيره ، لان الملك نفسه لم يتهم زوجته ، ولا جرؤ احد من النـاس على اتهام الزوجة ، بل ان من يفعل ذلك يقطع لسانه .

واذاً فلا بد ان يكون هذا المولود هو ابن الملك فيليب كما قدمت، وان لم يذكر اسم الولد في شهادة الميلاد .

قال احدهم :

ــ قد ينكر الملك هذا الولد ؟

فقالت :

ــ لن يجديه هذا الانكار نفعا امام الوقائع والمستندات التي معناه.

« ان الشعب بسيط ايها السادة ويجب الاتتفاع من سذاجته ، فهو لن يصدق ان الملك قد صبر على زوجته عشرين سنة ليتهمها بالزنا بعد ان كان يجاهر بفضائلها وعفتها كل هذه السنوات العديدة » .

« وعليكم اتم ان تنشروا هذه الفكرة بين الناس، وتكذبوا الاشاعة التي تقول ان الملكة اليزابيت قد وضعت غلاما من الدون كارلوس ابن الملك فيليب لانها كانت تحبه دون الملك زوجها ، وان تؤكدوا ان المولود هذا هو ابن الملك فيليب نفسه .. وانه وريثه الشرعي .

« ومتى انتشرت هذه الفكرة في اسبانيـا فاننا لن نلقى معارضـة لارتقائه العرش بعد وفاة الملك الحالي » .

وافق الجميع على اقوالها ، ولم يعارضوها ، ومضت فوستا تقول :

ــ وعليكم من الآن ان تحصـوه من الاغتيـال بعد غد في صراع الثيران .. فهم قد اعدوا خطة لقتلـه وسيحضر الملك هذه الحفلة لهذه الغاية .. عليكم ان تكونوا جميعا مستعدين للدفاع عنه وحمايته .

واقسم الحاضرون على حماية الامير المهدد بالقتل •

وقالت فوستا :

ـ ان مثل هذا المشروع بحاجة الى المال طبعا ، وبعضكم بحاجة للمال لاتفاقه ، فاطلبوا ما تريدونه من الدوق كاسترانا ، فهو مستعد لتقديم كل ما تطلبونه منه •

واخذ الحاضرون يغادرون المكان ، والدوق يقيد في دفتره المبالغ التي يطلبونها للاتفاق على رجالهم •

وثبت بارداليان في مكانه وهو يقول لنفسه :

ـ انا على يقين من ان الرواية لم تنته •

★ ★ ★

كان القزم في هذه الاثناء جامدا في مكانه ، حائرا في الاسباب التي تدعو (بارداليان) للاهتمام بما يقوله المتآمرون الاسبانيون ، وهو لو كان مكانه ، لولى هاربا ، ولتركهم وشأنهم لا يعرض لاعمالهم في كثير او قليل •

اخذ بارداليان يتكلم مع القزم باهتمام •• وتردد القزم اولا •• ونظر اليه بذهول عظيم ، ولكنه ازاء الحاح الفارس نزل عند رأيه فبدا السرور على وجه بارداليان ان وصل منه الى غايته •

وبعد قليل شاهد بارداليان من الثغرة التي كان ينظر منها الى القاعة ، رجالا يظهرون من خلف فوستا ، عرف منهم الدوق كاسترانا ، وكريستوبال ، فقالت لهم فوستا :

ـ لقد طلبت من الدوق ان يختار لي اربعة من اكثركم شجاعة واخلاصا واقداما •• فاختاركم وانا موافقة على اختياره •

فحنى المتآمرون رؤوسهم حتى كادت تمس الارض .

ومضت فوستا تقول بعد ان اشارت الى كريستوبال :

ــ اما انا فقد وقع اختيـاري على هذا الرفيق لاني على ثقة تامة بأمانته واخلاصه ، واما انتم فستكونون رؤساء على الزعماء الذين خرجوا منذ قليـل هنا ، وستصلكم الاوامـر التي يجب عليكم العمل بمقتضاها بواسطـة الدوق دي كاسترانا الذي عينتـه رئيسا عليكـم .. ومنكم سيتألف مجلسنا الاعلى ، ويكـون تحت امرة كل واحـد منكم عشرة رؤساء بما يتبعهم من الجند والرجال كما اصبحتم من اليـوم من عدادنا ورجالنا ، وسنقدم لكم كل حاجاتكم .

« واعلموا اني اعتمد عليكم لتخليص الامير الذي نريد اقامته ملكا علينا ، واعلموا ان هذا الامير هو الدون سيزار » .

فصاح الجميع بذهول :

ــ التوريرو ؟

وتحمس الجميع عند سماعهم هذا الاسم ، واكـدوا لفوستا انهم على استعداد للقيام بواجبهم حتى النفس الاخير .. وانه لن تسقط شعرة عن رأس الدون سيزار وهم احياء .

وغادر المتآمرون على الاثر المكان ، وتحرك بارداليان بدوره يتبع القزم بعد انتهاء الجلسة .

ولو لم يستعجل بارداليان في خروجه لسمع فوستا تقول لكريستوبال:

ــ اخشى ان تفسد جيرالدا مشروعنا ولهذا فيجب القضاء عليها في معركة الغد .. وعليك ان تنذر نسيبك صاحب اللحية الشقراء بارادتي هذه .. لانه هو الذي يستطيع تخليصنا منها .

وقال كريستوبال بصوت متهدج :

ــ مولاتي .. لقد وعدتني في الماضي .

ـ نعم لقد فعلت .. وسوف اعفو عن الفتاة اذا كنت مولعا بحبها الى هذا الحد .

« ولكن عليك ان تعلم ان هذه الفتــاة من النــور ، وانك انت في نظامنا الجديد ، ستكون في مركز رفيع ، فكيف يكون بالامكان زواجك من نورية » .

ـ اني اعتذر بالحب يا سيدتــي ، خصوصا وان المعروف في كل بلاد اسبانيا بأنها شريفة عفيفة طاهرة .

وقالت فوستا :

ـ لقد علمت انها من عائلــة فقيرة معدمة ، اضطرها فقر اهلها الى التخلي عنها .

وكان كريستوبال يعلــم من تحرياته ان (جيرالدا) من أسرة كريمة شريفة ، وقد اعتمــد على مساعدة فوستا للوصول اليهــا ، دون نسيبه صاحب اللحية الشقراء ، واما اذا اصبح الدون سيزار ملكا في المستقبل فانه سوف يتجاهل اجتماعه معها اذا آراد ذلك .

فلما سمع فوستا تقول انها من اسرة معدمــة فقيرة صدّقها ، لانه كان مؤمنا بقدرتها على كل شيء .

وأسقط في يده لما انهارت احلامه وظهرت له الحقيقة عارية .

* * *

أدرك اخيرا ان من الخير له ان يقوم بتنفيذ اوامر فوستا فقال لها :

ـ مري يا سيدتي افعل ما تريدين .

ـ اخبر صاحب اللحية بالنيابة عني ، بأن النوريــة سوف تحضر حفلة المصارعة بالتأكيد .. لان عشيقهــا سيحضرها .. ولا بد انه يعلم

وهو المطلـع على ما يدور في البلاط من انهم يكيـدون للدون سيزار ويرغبون في قتله اثناء الحفلة ، فما عليه الا ان ينتهز الفرصة للقبض على الفتاة التي يحبها منذ زمن بعيد .. وعليك ان تعمل لمساعدته في عملـه هذا ، حتى يقطع الدون سيزار امله في النوريـة . وحتى لا يكون لي انا علاقة بخطفها .. فهل تدبرت ما قلته لك ؟

فأجاب بالايجاب ، وانه سينفذ اوامرها بالحرف الواحـد ، وبذلك انتهى الحديث ، وغادرت فوستا مكانهـا الى باب سري غير الذي خرج منه المتآمرون .. ومن الطريق الذي خرج منه الدوق .

وتقدمها كريستوبال وفتح بابا سريا ، وهو واثق انها خلفه .

لكنها حين أرادت ان تتبعه ، سمعت صوتا ، سمّرها في مكانهـا يقول :

ــ هل تسمح لي سيدتي مصلحة الانسانية ومعيدة مملكة شارلمان بدقيقة من وقتها الثمين .

عرفت صاحب الصوت دون ان تلتفت الى الـوراء ، وأدركت ان بارداليان قد تمكن للمرة الرابعة او الخامسة من الخلاص من الموت الذي دبرته له .

والتفتت الى الباب في هذه اللحظـة ، وهو الباب الذي سبقهـا كريستوبال اليه ، فشاهدت هذا يشير لها ان تبقي بارداليان عندها برهة من الزمن ريثما يذهب ويأتي بنجدة للقضاء عليه .

- ٤ -

معركة في الاقبية

تمالكت فوستا اعصابها ، وعادت الى مكانها في القاعة ، واجلست بارداليان على المقعد الاخير الواقع على يسار مقعدها ، حتى لا يشاهد الابواب السرية عند فتحها وظهور انصارها منها •

وجلس الفارس في المكان الذي أرادته له ، وهو يبتسم حتى ان فوستا أدارت نظرها حولها لتتأكد من ان احدا ليس في القاعة ليناصره ويؤيده •

واخذا بأطراف الحديث •

قالت له :

ــ لقد نجوت من السم والهواء المسموم كما يبدو •

قالت ذلك بلهجة لطيفة عذبة ، كأنما لم تكن هي التي أعدت اسباب الموت هذه له •

وأجابها بمثل لهجتها : لقد فعلت •

وسألته عن الطريقة التي تمكن فيها من الخروج من قبره ؟•

فسألها ان تعفيه من الجواب لأن هذا سره •

ومضى الحديث هادئا لطيفا على هذا المنــوال .. حتى ابتدرتــه تقول :

ـ هل تظن انك تستطيع مغادرة هذا المكان حيا ؟

فأجابهــا :

ـ طبعا .. انا واثــق من ذلك رغم انصــارك الذين ارسلت في طلبهم .

واهتزت حين عرفت انه عارف بخبر النجدة التي طلبتها .. وازدادت دهشتها وحيرتها حين اخبرها بأنه عارف بالسبب الذي جعلها تدعوه الى الجلوس على هذا المقعد .

ثم اخبرها بثقة وحزم بأنه سوف يخرج من هذا المكان سالما آمنا.. لان نهايته لم تحن بعد ، ولا ادلّ على ذلك من بقائه حيا رغم المكايد التي نصبتها له ، وقرارات الاعدام التي اصدرتها ضده ، وقد خرج منها جميعا سالمــا .

حاولت ان تستميله اليها ، وقد عرفنا انها فعلت ذلك اكثر من مرة، فقد عرضت عليه مرة ان يحكم فرنسا مكان دي كيز ، فرفض .

وعرضت عليه الآن حكم اسبانيا فرفض ايضا وقال لها :

ـ لي نصيحة اليك .. اقتلي فيليب الثاني ملك اسبانيا كما قتلت هنري الثالث ملك فرنسا .. فذلك شأنك وليس يهمنــي امر هذا الملك الاسباني ، في كثير او قليل .

« لقد سمعت كل ما دار بينك وبين الاسبانيين من الحديث، وسأقف على الحياد في هذا البلد فلا انتصر لهذا ، ولا اؤيد ذاك ، بل انه ليسرني ان تقوم الحرب الاهلية في اسبانيا ، لعلها تشغلها عن فرنسا وتترك بلادنا بسلام .

« افعلي ما تريدونه هنا .. فلا اعارضك فيه .. ولكن لا توجهي مكايدك نحو بلادي فان بلادي بحاجة الى السلام والهدوء كما قدمت.. فان فعلت وقفت في طريقك ، وانت تعلمين اني العدو الذي لا يستهان به» قالت :

ـ صدقت فهل هذا كل ما تطلبه مني ؟

ـ كلا .. لاني اريد بهذه المناسبة ان انصحك بأن مشروعك الجديد هذا سيفشل كما فشل في فرنسا .. لان اعمالك انما تقوم على العنف والخيانة والقتل ، وسياستك كلها متوقفة على رأس شاب صالح مستقيم هو (التوريرو) .. الذي سيرفض ما تعرضينه عليه .

« ولما كنت احب هذا الشاب واحترمه ، فاني احذرك من الاساءة اليه ، الا اذا أردت ان اطاردك واهدم كل ما تحاولين بناءه .

« لقد انتهى حديثي .. وباستطاعتك الآن ان تدعي رجالك لقتلي» . وانتصب واقفا .

واقبل رجال فوستا في هذه اللحظة ، وهم يصرخون صراخ الموت. ووقفت بدورها ، لا تغادر القاعة ، ولا تقول لباردليان شيئا لانها قررت البقاء لتشاهد النهاية .

ولو أراد الفارس لوضع يده على كتفها وابقاها معه ، فلا يعود احد يجرأ ان يمد له يدا ، او يحاول معه حربا .

★ ★ ★

كان كريستوبال قد احضر معه خمسة عشر رجلا يثق بهم لمثل هذه المهمات الخطيرة .. كما احضر معه رجال فوستا الثلاثة مونتسيري ، وكالابر ، وسانت مالين ، الذين قرروا العمل حسب هواهم ، وان لا يخضعوا لكريستوبال الذي كانوا يكرهونه .

وكان على رجال فوستا حتى يصلوا الى بارداليان ان يتخطوا المقاعد للوصول اليه ، وقد نظر اليهم بارداليان عندما اقبلوا نظرة ملؤها السخرية ، ولم يسحب خنجره من حزامه احتقارا وهزءا .

وقف خلف المقعد الذي كان جالسا عليه ، فأسند عليه قدمه اليسرى وكتف يديه وعيناه تقدحان شررا .

وكانت فوستا وهي في مكانها تقول لنفسها :

ــ لا بد انه سيتغلب على الجميع ويخرج سالما .. كما عودني ان يفعل دائما وابدا .

التفت بارداليان الى الفرسان الثلاثة وقال لهم :

ــ هذه هي المرة الثانية التي تهاجمونني فيها هذا اليوم ، وهذا يدل على ان المال الذي تدفعه لكم فوستا لا يذهب عبثا .

فقال له احدهم :

ــ دعك من هذا الكلام .. ومن يدري فقد نستطيع التخلص منك هذه المرة .

فقال :

ــ من المستحيل ان توفقوا هذه المرة لانبي كما ترون لا احمل سلاحا .

وصاح موتتسيري :

ــ هذا صحيح فهو لا يحمل سيفا .. ونحن لا نستطيع مهاجمته والحالة هذه ، لاننا لسنا من القتلة ، وسنترك امره لاعدائه فذلك خير لنا .

وتراجعوا بعد ان اعادوا سيوفهم الى اغمادها .

فقال بارداليان وهو يبتسم :

ــ اذا كان الامر كذلك فابتعدوا قليلا واشهدوا المعركة اذا كان يهمكم حضورها .

وكان قد اقترب منه سبعة من الخصوم ، فتناول المقعد الكبير الذي كان جالسا عليه ، وأداره يمنة ويسرة ، فسمع الجميع صوت تحطيم الاجسام ، وتكسير العظام ، واصوات الرعب والفزع ، وأنين الجرحى ، وانجلت المعركة الاولى عن قتيل وثلاثة جرحى ، وتراجع الباقون .. وقد ملكهم الذعر والفزع .

وتقدم بقية الخصوم بعد ان دفعهم كريستوبال وحرّضهم ، فأعاد بارداليان عليهم الكرة ، فقتل وجرح عددا وتراجع الباقون .

كان عدد الضحايا قد بلغ سبعة رجال ، وكان عدد الذين جلبهم كريستوبال عشرين رجلا عدا الفرسان الثلاثة الذين انسحبوا من المعركة، ووقفوا في مكانهم جامدين لهول ما شاهدوا ورأوا .

كان عدد الضحايا قد بلغ سبعة اشخاص ، ولم يبق غير ثلاثة عشر رجلا .. فاغتنم بارداليان فرصة البهتة التي اصابت الجميع ورفع المقعد للمرة الثالثة والقاه في وجه الباقين فأوقع بعضهم ارضا ، واصاب آخرين بجراح وتراجع الباقون منذعرين .

وعندئذ جمد الباقــون في مكانهم ، ولم يعد احد منهم يجرأ على الدنو من هذا الوحش الكاسر ، كما تصوروه في نفوسهم .

وصاح الفارس ساخرا :

ـ لماذا لا تهاجمونني ؟

واخذ كريستوبال يحرّض البــاقين على الهجوم ولكن احدا لم يستمع له ، فقهقه بارداليان ضاحكا ، وتناول اطول سيف شاهده على الارض ، من سيوف ضحاياه ، وبعد ان هزه قال لخصومه :

ـ اذهبوا في سبيلكم ايها الجبناء فقد عفوت عنكم .

ثم التفت الى فوستا قائلا :
– الى الملتقى ايتها الاميرة .

★ ★ ★

دار حول المقاعد الخشبية ، التي كانت حوله ، وهو ثابت هادىء ، كأنما كان واثقا من ان احدا من خصومه لن يعترضه ، ولن يجرأ على التقدم نحوه .

واتجه نحو الحائط الذي كان فيه المزلاج السري الذي يعرفه ، او الذي عرفه من القزم فقرعه ثلاثا بقبضة سيفه ، فانفتح باب فيه من تلقاء نفسه فخرج منه .

وعندئذ فقط تحرك رجال فوستا ، واسرعوا نحو الحائط يقرعونه، ثم حملوا مقعدا واخذوا يضربون به الباب لعله يفتح له .. ولكن بدون جدوى .

واخذ العرق يتصبب من جبين كريستوبال فقد تصور ان تغضبمنه فوستا لفشله ، وكذلك كان حال الفرسان الثلاثة ، الذين خشوا ان تقرّعهم فوستا لانهم لم يهاجموا بارداليان ويقاتلوه ، ولكن هذه لم تفعل شيئا مما كانوا يتصورون .

اكتفت بأن امرتهم بنقل الجرحى ، وتقديم العناية لهم ، بعد ان قاموا بواجبهم ، وتوزيع مائة دينار على كل منهم .

وامرت الفرسان الثلاثة بانتظارها في الرواق .

وبعد ان اعطت كريستوبال التعليمات اللازمة، غادرت القصر يحيط بها حرسها الى قصر الالكازار حيث توجهت الى مقر المفتش الاعظم .. اسبينوزا ، وبعد ان تحدثت اليه مليا ، غادرته فخرج لوداعها الى البـاب

الخارجي ، مما يقطع بأنهما اتفقا على خطة معينة ، لان فوستا كانت بادية السرور لما غادرت القصر .

★ ★ ★

والواقع ان الفضل في مغادرة بارداليان القاعة ونجاته من خصومه من الباب السري ، يعود الى القزم الذي أمدّه بهذه المعلومات حين طلب منه بارداليان ان يدله على باب سري لا يعرفه الآخرون يستطيع الخروج منه في الوقت المناسب .

وقد تمنع القزم في اول الامر ، لانه خشي ان يعرض بارداليان نفسه للهلاك حين يقتحم القاعة وليس يحمل من السلاح غير خنجره .

ولكن بارداليان الح عليه فدله على باب سري للقاعة لا يعرفه غيره هو .. وقد رأينا كيف ان فوستا نفسها كانت تجهله .

ولقد وقف القزم بانتظاره خارج هذا الباب ، وكان واثقا من حدوث معركة كبيرة رهيبة في داخل القاعة ، لا يدري ما يكون مصير بارداليان بعدها .

فلما سمع الدقات الثلاث سرّي عنه ، وفرح فرحا شديدا ، ولما شاهد بارداليان يخرج سالما قال له :

ــ لقد حسبت انك لن تخرج حيا من هذا المكان .

فقال له بارداليان ضاحكا :

ــ كن مطمئنا فلن يصلوا اليّ بمثل هذه السهولة .

وخشي القزم ان يحاول بارداليان شيئا جديدا فقال له وهو يهتز من الخوف :

ــ اظن ان مولاي لا يمانع في مغادرتنا هذا المكان الآن .

فأجابه بارداليان بالايجاب ، وغادر الرجلان القصر ، ولما وصلا الى نزل (البرج الذهبي) كان الخدم ينظفون المكان و (بربارة) الخادمة تصدر أوامرها الى هذا او ذاك .. وقد استبد بها الغضب لنزول (حنة) الى المطبخ .

ذلك ان (حنة) لم تستطع النوم لقلقها ، فلم يكد يبزغ الفجر حتى قامت من سريرها ، وارتدت احسن ثيابها ، واصلحت زينتها ونزلت الى المطبخ لمراقبة الخدم ، والقاء نظرة على الباب الخارجي بين لحظة واخرى.

ولما ابصرت بارداليان قادما مع القـزم خفق فؤادها واحمر وجهها واسرعت الى بارداليان تقول له :

ــ حمدا لله على سلامتـك يا سيـدي فان رفيقيـك سرفانتس والدون سيزار قد قلقا لغيابك .

فقال بارداليان :

ــ شكرا .. وسأذهب لتطمينهما عن عودتي .

وانتظر القزم ان تلقـي (حنة) نظرة عليه ، وان تشكره لانقـاذه الفارس ، ولكنها لم تفعل ولم تبال به ، فألقى نظرة على بارداليان مليئـة بالتوسل والاسترحام .

سألت حنة الفارس .. فيما اذا كان يريد شيئاً يأكله ؟

فهتف يقول :

ــ انّي اكاد اموت جوعا ايتها الحسناء ، فقدمـي لي ما اكله ، مع زُجاجتين من الخمر الفاخر .

ــ امرك يا سيدي وسأتولى خدمتك بنفسي .

ــ شكرا ايتها الحسناء ، كما ارجو ان توقظي صديقي وتخبريهما بقدومي .

★ ★ ★

اسرعت حنة ترقي السلم بخفة الغزال لتنفيــذ اوامر بارداليــان ، وامرت احدى الخادمات بأن تعد له ما طلبه .

والتفت بارداليان فرأى القزم ينظر اليه ، كأنما يشكو له اهمــال (حنة) له فقال وهو يضحك :

ــ اذهب اليها وقدم لها احترامك وكن لطيفا .

فذهب القزم يسلم على حنــة ، وكانت هذه قد جلست في غرفــة خاصة بها ، رتبتها على ذوقها .. وانتظرت مجيء القزم اليها ، وهي واثقة انه لا يفارقها بنظرة .

ولما تحرك المسكين من مكانه واقبل نحوها ، ووقف امامها جامدا لا يستطيع ان يقول شيئا ، كما لا يستطيع ان يتقدم او يتأخر .

سألته بلهجة قاسية :

ــ سمعت من الفارس بارداليان انك شجاع .

فقال متلعثما :

ــ لست ادري .

ــ ان مثل الفارس بارداليان لا يمكن ان يكون مخدوعا فهو ذكي جريء صريح .. وقد سمعته يقول ذلك على مسمع من الجميع .

قال مترددا :

ــ لعله يكون صادقا .. واما انا فلست ادري .

اخذت حنة تضرب الارض بقدميها وتقول :

ــ هل صحيح ما قاله الفارس من انك اذا احببت فتاة تحبها حتى الموت .

فاحمر وجه القزم وقال خجلا :

ــ لست ادري .

فضربت الارض بقدميها غاضبة وقالت :

ــ ما هذا الجواب .

« لست ادري .. لست ادري .. لو لم تكن قد بحت له بسرك لما قال ما قال » .

ــ اقسم لك اني لم افاتحه بهذا الحديث .

ــ اذن كيف علم بأنك اذا احببت فتاة احببتها حتى الموت ؟ ومن هي هذه الفتاة التي تحبها ؟.. تكلم فقد قتلتني ببلادتك .

كانت عينا القزم تقولان لها انها الفتاة المحبوبة ، ولكنها تجاهلت ذلك . وطلبت منه التصريح .

وقال اخيرا بصوت خافت :

ــ لست احب احدا ، وما احببت في حياتي غيرك كما تعلمين .

كانت في الواقع مسرورة من هذا الحب الاعمى .. وكانت تفضل لو كان القزم قريبا يستطيع الوقوف في وجهها لا ان يظل عبدا ذليلا امامها .

ولما شاهدت انه لا يزال على حاله من الخضوع والهوان صاحت به:

ــ اذا كنت لا تدري شيئا ولم تبح للفارس بأسرارك فما جئت تفعل هنا ؟.

اصفرّ وجه القزم حتى بدا كالاموات وقال بصوت متهدج :

ــ جئت لأعرف اذا كنت راضية عني .

ــ ما هو الامر الذي تريد ان ارضى عنك لأجله ؟

ــ ألم أجد الفارس ، وآتيك به ؟

ــ وماذا يهمني منه .. حتى جئت تسألني هذا السؤال ؟

كاد المسكين يجن من الذعر وقال :

ــ لقد قلت لي ...

ــ ماذا قلت لك ... تكلم ...

ــ ان اعثر عليه وأجده وأنقذه .

ـ انت مجنون .. ولا ريب انك من الحالمين .

صعق المسكين لهول هذه المفاجئة ، وحار ماذا يقول او يفعل ، وكانت (حنة) تراقبه ، وهي مسرورة من ارتباكه واضطرابه ، فقد كانت في الواقع تحب القزم حب اخاء لا حب غرام .. وقد تأصل هذا الحب في نفسها دون ان تشعر به وبمرور الايام اصبح شيئا عالقا بها ، ومن الممكن ان يتحول مع الايام الى حب حقيقي .

ولما شاهدت باردليان احبته دون ان تشعر ، بعدما سمعته عن بأسه وشجاعته واخلاقه العالية .

ولكن هل تنجح فتاة مثلها وهي ابنة صاحب نزل متواضع من الزواج بفارس من طبقة النبلاء .

ولما سمعت الفارس بعد عودته ، يقص على سامعيه جرأة القزم وبسالته ، وكيف سعى لانقاذه ، بعد ان كان يريد الفتك به ، عادت تفكر في نفسها وفي هذا القزم الذي يحبها حتى العبادة .

ولما أرادت بحث موضوع الحب معه ، لم يجسرا على مفاتحتها به خجلا وخوفا ، وكانت تتمنى في قرارة نفسها ان تسمع منه هذه الكلمة ، وان يقولها بقوة وجرأة ، فلما لم يفعل عمدت الى اذلاله كما قدمنا ، تشفيا وغضبا .

وخطر ببالها ان تزيد في اذلاله وان تتركه يقبّل حذاءها ، فجلست فوق كرسيها بمنتهى العظمة ، ووضعت رجلا فوق رجل وقالت للقزم :

ـ قبّل قدمي ايها الاحمق .

فلم يسع هذا الا الطاعة ، فخر جاثيا يقبّل حذاءها ، فتبسمت تبسم الفوز .

واما القزم فقد اخذ يقبّل الحذاء وهو فرح مسرور لانه حصل على نعمة لم يكن يحلم بها .. ولانه احس في قرارة قلبه انها ليست غاضبة عليه ، بل انها تعطف عليه بالتأكيد .

وقالت له اخيرا :

ـ هل تحققت الآن من اني لست غاضبة عليك .

فانتصب واقفا وهو يقول :

ـ يا لك من سيدة صالحة لا مثيل لها .

قالت :

ـ اصحيح ما سمعته من انك كنت تريد قتل الفارس باردليان ؟

فاحمه وجهه وهز رأسه بالايجاب ،فـ سألته عن السبب ، وقد املت ان يعترف لها بحبه وغيرته عليها ، ولكن المسكين لم يستطع ان يقول غير انه لا يدري .. وضربت الارض بقدمها غاضبة وصاحت به :

ـ لست ادري .. لست ادري .. لقـد قتلتنـي بهذه الاجوبـة الباردة ، اذهب من امامي ولا ترني وجهك .

دهش القزم لهذا التحول الفجائي ، وجمد في مكانه ، فانهالت عليه ضربا بيدها ، وهي تقول :

ـ اذهب من امامي .

فحنى رأسه وغادر الغرفة ، ولو تطلع خلفه لشاهد (حنة) تبكي ، ولكنه لم يكن يجسر على التطلع خلفه ، منتظرا سكون العاصفة ، لتدعوه مرة ثانية اليها ، وليقوم عندئذ بتنفيذ اوامرها .

— ٥ —

فوستا والتوريرو

ترك (التوريرو) صديقه بارداليان يستريح في النزل ، واسرع الى حبيبته (جيرالدا) يسألها عما قالته لها الاميرة عن مولده ونشأته وابويه، ولما ازفت الساعة التاسعة اوصى (جيرالدا) بعـدم مغادرة النزل ، وان تظل بجوار بارداليان وتحت رعايته .

ولما ذهب الى غرفة بارداليان ليسأله حمايـة خطيبته والفاه نائما ، تركه دون ان يوقظه واسرع الى غرفة (حنة) ابنة صاحب النزل يسألها رعاية خطيبته وحبيبته .. فوعدته خيرا .

فسألها ان تخبر الفارس بارداليان عندما يستيقظ من نومـه ، انه غادر النزل لأمر هام ، وانه سيعود بعد ساعتين على الأكثر .

ولما بلغ الشارع وجد الناس يسرعون الى ساحة سان فرنسيسكو حيث تقرر احراق سبعة من الهراطقة ، وكان الناس عند رؤيتهم للتوريرو يحيونه باحترام ، ويهتفون له ولكنه كان في شاغل عنهم جميعا .

وما زال هذا شأنه حتى وصل الى منزل السرو ، فسأل عن الاميرة

فأخبره الخدم انها ليست في المنزل ، وسمعهم يذكرون اسم الاميرة فوستا فعرف ان الاميرة التي يبحث عنها اسمها فوستا •

فقال التوريرو للخادم :

ــ اني اريد مقابلة الاميرة لأمر هام جدا ، فهل لك ان تدلني على مكانها الآن ؟

ــ اذا اراد سيدي ذهبت به الى امين سر مولاتي لعله يعرف منه ما يريده ؟

ووافق التوريرو الدون سيزار ، على ذلك ومضى به الخـادم الى امين سر فوستا ، مارا في عدة غرف مزدانة بأحسن الرياش وأثمنها •• مما اكد للتوريرو ان فوستا هذه تملك ثروة عظيمة •

وكان امين السر هذا رجلا عجوزا ، استقبل التوريرو بلطف زائد ، وسأله من يكون ؟•• وما هو لقبه ، واسم عائلته ، ليقدمه الى الاميرة ، لانه لا يستطيع ان يقدم اليها من الناس الا من يثق بهم •

فقال له الشاب :

ــ اني ادعى الدون سيزار الملقب بالتوريرو •

فانتصب واقفا عندئذ ، وحنى رأسه باحترام زائد ؛ واعتذر للشاب عن عدم معرفته له وقال له :

ــ ان سيدتي تنتظـر زيارتك هذه بفارغ الصبر فتفضل معي يا سيدي •

ودهش الشاب لهذا التطور الهائل الذي طرأ على اخلاق العجــوز ومعاملته له •

وسأله عن سبب هذا الاكرام الزائد ، وهو الشاب الذي ليس شيئا مذكورا •

فقال له العجوز :

ــ ان ما فعلته يا سيدي هو في الواقع دون مقامك ، واني اكتفي الآن بأن ادعوك سيدي ومولاي ، رجـاء ان ادعوك بلقب آخر في وقت قريب .

فاصفر وجه الشاب لهذا الجواب ، وقال دهشا :

ــ ما معنى هذا الكلام ؟

ــ لست استطيع في الوقت الحـاضر الافصاح باكثر مما قلت .. تتفضل معي يا سيدي لان سيدتي سوف تسر كثيرا بالاجتماع بك .

وغادر العجوز المنزل والتوريرو خلفه ، حتى قاده الى ساحة سان فرنسيسكو التي احتشد فيها جمهور هائل من جميعطبقات الشعب لرؤية المحرقة ومشاهدة حفلة الاعدام لسبعة من الهراطقة كما يقولون .

وكانت الشرفات والنوافذ المطلة على الساحة غاصة بالناس ايضا ، من النبلاء وكبار القوم .

وكان في وسط المكان محرقة كبيرة تتصاعد منها الدخان لاحـراق الهراطقة السبعة الذين كانوا في طريقهم الى المكان مع حرسهم .

وكان امين فوستا يشق طريقه بين هذه الجمـوع الغفـيرة بنشاط وقـوة ، لا يتناسبان مع سنه ، حتى وصلا الى بيت فخـم لا يظهر على شرفاته ونوافذه احد من الناس .

وبعد ان اجتازا عدة غرف مزدانة بأحسن الرياش الفاخر ، يفوق ما شاهده في منزل السرو ، سأل العجوز الشاب ان ينتظره ريثما ينذر الاميرة بقدومه .

وقف الشاب في مكانه في احدى هذه الغرف ، واسرع العجوز الى الرواق ، فلما اصبح فيه انتصب واقفا وتوجه الى بهو فخم كانت فوستا تجلس فيه على مقعد حريري وثير ، وقد ارتدت ثوبـا في غاية البساطة وامارات التفكير بادية على وجهها .

حتى امين سرها رأسه باحترام ووقف جامدا في مكانه .
سألته :
ــ ما الذي فعلته يا كريستوبال ؟
فأجابها :
ــ لقد وصل يا سيدتي .
ــ الم يعرفك ؟
ــ لو عرفني لما وصلت سالما اليك .
فابتسمت فوستا وقالت :
ــ صدقت فهو يكرهك جدا .
ــ انه يتمنى لي الموت يا سيدتي ، واذا نجحت في مشروعك ، وظل على كرهه ، فلا بد ان يقضي عليّ .
فقالت :
ــ لا عليك .. فسوف اصلح بينكما عند نجاح المشروع ، وسيصفح الملك عن احد رعاياه المساكين .
ــ لقد اعدت الطمأنينة الى قلبي يا مولاتي .
ــ دعه يدخل اليّ .. وتعال قابلني بعد انتهاء اجتماعنا لأصدر اليك اوامري .

★ ★ ★

دهش التوريرو لما شاهد فوستا ، وتمعن في جمالها الفتان ، وحنى رأسه احتراما حتى لا تلحظ اضطرابه ودهشته .
وفطنت فوستا لتأثيرها عليه .
وقالت في نفسها :

ــ ان هذا الشاب سيكون ملكا ناجحا ، لان الشعب يحب الظواهر، ويعبد القوة والاقدام .

واذا اسعدني الحظ واصبحت زوجته ، فاني اكمل نجاحه وظفره .

وكانت واثقة بأن نجاح مشروعها هذا يتوقف على تخلي هذا الشاب عن حبيبته (جيرالدا) .. ولما كانت قد حكمت على هذه الفتاة بالموت فان الشاب طبعا سوف ينساها مع الايام .. بعد ان اصبح من المستحيل اعادتها الى الحياة .

وكانت الى هذا من المؤمنات بأن احدا لن يرفض المركز الذي تعرضه عليه ، من ملك وعرش وجاه ، الا باردالیان ، الذي ليس له مثيل بين البشر بالتأكيد .

سألته :

ــ هل انت الشاب الملقب بالتوريرو ؟

ــ نعم يا سيدتي .

ــ وانت تدعى الدون سيزار ، ولكنك تجهل حقيقة لقبك واسم عائلتك .. ولا تعرف شيئا عن سر مولدك ، ولا تدري من امرك الا انك خلقت في مدريد منذ نيف وعشرين سنة .

فقال :

ــ صدقت يا سيدتي .

اشارت الى مقعد قريب فجلس عليه .

واخذت اصوات الجموع من الخارج تصل اليهما، واخذا يسمعان الاصوات تنادي بموت الهراطقة ، وحياة الملك .

وظهر الضيق على وجه الشاب لما سمع هذه الهتافات . ولكنه ما لبث ان تمالك نفسه وقال لفوستا :

— لقد جئت اشكرك يا سيدتي على عنايتك بفتاة احبها اكثر من حياتي .

فضاق صدر فوستا لما سمعت حديثه عن (جيرالدا) وقالت :

— لم افعل ما فعلته الا لأجلك .. فلا تشكرني بالنيابة عن الغير .

وذهل الشاب من اللهجة التي استعملتها فوستا ، وتجاهلها لحبيبته، فقال :

— ان هذا الغير الذي تذكرينه يا سيدتي قد اكد لي عطفك عليه واحسانك له .

قالت :

— لقد فعلت ما فعلته لأجلك .

— ولكنك لم تكوني تعرفينني ، فهل لي ان اعرف السبب الذي يدعوك للاهتمام بي ؟ وانت السيدة الواسعة الثراء الرائعة الجمال ؟

— ان من كان مثلك وبمثل اخلاقك سيدرك غايتي بسرعة ، ما يكون موقفك لو عرفت ان بعض الاشقياء الاشرار يريدون الفتك بشخص بريء لا ذنب له .

— اول ما افعله انذار هذا الشخص بالخطر الذي يهدده، ومساعدته عندما يدعو الواجب الى ذلك .

— اذاً فاعلم اني عرفت ان بعض الاشقياء يريدون قتلك غدراً ، فسعيت لانقاذك على غير علم منك ، والفتاة التي ذكرتها كانت آلة في يد هؤلاء الاشقياء ، فعملت لابعادك عنها ، ولما زال الخطر اعدتها اليك ، واني مسرورة من نجاحي في عملي هذا ، واذا اردت ان تقبلني صديقة لك فتأكد اني مستعدة لمساعدتك ، ولا بد انك ادركت بأن مساعدتي لا يستهان بها .

فشكرها الشاب على عواطفها ، وسألها بشيء من الشك :

ـ هل انت واثقة بأني مهدد بالخطر ؟
ـ كل الثقة .. وقد يتمكن منك خصومك بعد ساعات لا بعد ايام .. وانا اسفة لاني جمعتك بتلك الفتاة ، ولو كنت عارفة بأسرار المكيدة لما فعلت .

بدت امارات الشك على وجه الشاب وسألها ببرودة :
ـ وكيف ذلك يا سيدتي ؟

فقالت :
ـ لاني واثقة من ان هذه الفتاة ستكون سبب هلاكك وموتك .
لاذ بالصمت مليا ثم قال :
ـ اتعرفين يا سيدتي العدو الذي يريد هلاكي ؟
ـ نعم .
ـ ما اسمه ؟
ـ انه ابوك .
وكانت المفاجأة من الشدة بحيث انتصب واقفا وصاح :
ـ ماذا تقولين ؟
ـ قلت لك ان عدوك هو ابوك .
ـ لقد اكدوا لي ان والدي مات منذ نيف وعشرين سنة .
ـ بل هو لا يزال حيا يرزق .
ـ انها حكاية لفقها اصحاب الغايات ، وغايتهم ابعادك عن معرفة الحقيقة .
وتبدل وجه الشاب واخذ يصرخ كالمجانين ويقول :
ـ ابي .. اني اريد رؤيته حالا ولو كان في هذا موتي .
ثم ما لبث ان عاد لنفسه لما اكدت له فوستا ان اباه يريد قتله .
فقال :

ــ هذا مستحيل .. ولقد أخطأت في القـدوم الى هذا المكان .. وانا واثق ان ابي لا يناصبني العداء ، الا لاسباب شرعيـة خطيرة ، فهل انا ابن زنا ، ولهذا يخجل من التعرف عليّ ويرفض انتسابي اليه ؟

★ ★ ★

انتصبت فوستا واثقة ترد عليه ، وتؤكد له ان امه كانت من اطهر السيدات واشرفهن .

وقد ماتت شهيدة اخلاصها وامانتها ، وكان الذي حكم عليها بالموت هو الرجل الذي انكرك .. والذي يتمنى لك المـوت بعد ان اماتها منذ سنوات عديدة .. ان قاتلك اليوم وقاتل امك بالامس هو ابوك .

فقال الشاب وقد استبد به الغضب والخوف :

يا للهول .. الست ابنه الشرعي ؟

ــ نعم .. وسأقدم لك الادلة التي تؤكد هذا وتثبته .. متى حان الوقت المناسب .

ــ اذا كان الامر كما تقولين ، فلا بد ان يكون والدي سفاك دماء مجنون .

ــ هذا صحيح .

ــ وامي ؟

ــ لقد كانت قديسة .

وبكى الشاب فقالت فوستا :

ــ الافضل ان تثأر لأمك .. لا ان تبكي .

فارتمى على المقعد حائرا وهو يقول :

ـ هل اقتل ابي .. ويلاه ما هذا الموقف .. وهل يجوز للولد قتل والده ليثأر لأمه ؟

فقالت فوستا :

ـ قبل ان تفعل هذا او ذاك عليك ان تفكر اولا في حماية نفسك .

وبعد ان وعدته فوستا باطلاعه على أسرار مولده في الوقت المناسب، سألها :

ـ كيف يمكن ان تكون الفتاة التي احبها سبب موتي ؟

وازدادت الضجة في الخارج ، وارتفع الصراخ من كل جانب فقالت فوستا :

ـ تعال وانظر .

فأجفل الشاب وقال :

ـ عفوا يا سيدتي فاني لا أطيق رؤية هذه المناظر المتوحشة .

ـ وهل تظن اني أطيقهـا .. لقـد طلبت منك هذا الطلب لغرض معين فتعال .

وتقدم الشاب نحو الشرفـة ليشاهـد موكب الذين سَيصار الى أحراقهم .

وكان الملك فيليب الثاني يسير في آخر الموكب ، وبين ثلاثة صفوف من الجند يحملون سلاحهم بأيديهم ، وامارات الغضب بادية على وجهه ، والى يمينه ولده فيليب ولي عهده ، ومن خلفه عدد من رجال البـلاط والنبلاء والسيدات والرهبان .

ولما بدأوا بتقديم المحكوم عليهم الى المحرقة ، صاح احدهم وهو شاب يقول :

ـ لست هرطوقيا وانما انا كاثوليكي مؤمن بالله ، فليسقط حكم الظلمة الغاشمين .

واجفل التوريرو عند رؤية هذا الشاب وسماعه كلامه ، وصاح :
ــ اي ذنب ارتكبه هذا الشاب ليستحق الموت حرقا ؟
فقالت له فوستا :
ــ لقد ارتكب الجريمة التي تفكر في ارتكاب مثلها ، وهي الزواج من فتاة هرطوقية .
ــ ولكن (جيرالدا) كانت مسيحية كاثوليكية .
ــ انها نورية .. ولهذا وجب ان تكون من الهراطقة ، وكفى بهذا الجرم للحكم عليها .
ــ ولكنها تعمدت في الماضي .
ــ ليس باستطاعتها ان تظهر وثيقة عمادها ، ولو فعلت لما استفادت لانها عاشت هرطوقية ، وانت تريد ان تربط مصيرك بمصيرها .
ــ ومن هو الرجل الشرير الذي سنّ هذه الشرائع الظالمة ؟
ــ انه ابوك .
ــ ابي .. من هو هذا الرجل ؟

وحصلت في هذه اللحظة جلبة عظيمة في الساحة .

وظهر في احدى الشرفات التي كانت خالية ، وهي تابعة لقصر يماثل القصر الذي كانت فيه فوستا جمالا وروعة وفخامة .. شخص حنى الحضور جميعا رؤوسهم لما ظهر لهم وتقدم يجلس على مقعد في هذه الشرفة .

القى هذا الشخص نظرة كانت اقرب الى عدم المبالاة على المشهد الذي امامه ، فلم يجفل لرؤية المحرقة ، ولا اهتز لمشاهدة الموتى .
واقتربت فوستا من التوريرو وقالت له :
ــ تسألني عن ابيك فهل تريد رؤيته ؟
فاهتز الشاب وقال :

ــ طبعا اريد رؤيته فمن يكون ؟

ــ اذا اردت ان تعرف اباك فانظر امامك تره .

واشارت الى الشخص الـذي كان جالسا على الشرفـة في القصر المقـابل ينظر الى الرجال السبعـة الذين كانوا يحرقون هادئا كأن الامر لا يعنيه .

تراجع التوريرو خطوتين الى الوراء ، ثم قال بصوت أجش ، وهو يضع يده على قبضة سيفه :

ــ الملك ...

* * *

- ٦ -

فوستا تقرر موقفها

سرّت فوستا لهذه النتيجة .. التي وصلت اليها .

كانت تعلم ان الشعب الاسباني يكره الملك فيليب الثاني ، لظلمه وعسفه ، وان (التوريرو) لا بد ان يكون للملك ايضا من الكارهين .

لقد كان يكره الملك لانه كان يعتقد ان هذا الملك هو الذي قتل والده ، وكان يريد الانتقام منه لهذا السبب ، فلما اخبرته (فوستا) ان الملك هو والده ، ذهل وذعر وحار في أمره ، ولم يصدق ما سمعه .

ولكن فوستا راحت تؤكد له الخبر ، وتتهم والده هذا بأنه الذي عذب والدته حتى ماتت من الغم والقهر والمرض والعذاب .

ومضت فوستا بعد ان تمالك الشاب نفسه فقالت له :

ــ عفوا اذا أسأت اليك يا مولاي .. وكشفت لك حقيقة نسبك ، فان الظروف قد ارغمتني على ذلك ، وفرضت عليّ ان اقول لك الحقيقة فرضا .

وذهل الشاب حين سمعها تدعوه يا مولاي ، وسألها عن السبب ، وما هو الا شاب فقير بائس .

فأجابته :

ــ هذا هو اللقب الذي يعود اليك شرعـا ، ربما تحصل على ما هو اعظم منه .

عرته هزة جديدة لما سمع هذا الجواب .

وادرك ان في الجو شيئا ، وان هناك امورا تدور حوله لا يعـرف من سرها شيئا .

وأراد معرفة الحقيقة فسألها بهدوء :

ــ اذن فأنت تزعمين يا سيدتي اني ولد شرعي للملك فيليب ؟

وفاجأها هذا السؤال من حيث لم تكن تتوقع .

ولما شاهدته قد تمالك اعصابه اخذت تسأل نفسها فيما اذا كان الله قد هيأ لها مجنونا آخر مثل بارداليان يرفض العرش ، ويريد العيش في احلامه .

وكان عليها ان تحزم امرها بسرعة .

فقالت :

ــ اني املك المستندات الشرعية التي تثبت حقك .. وانك ابن شرعي للملك فيليب الثاني ، فضلا عن وجود الشهود الذين يؤيدون هذا القول ، وسيأتي اليوم ــ وارجو ان يكون قريبا ــ الذي اقـدم لك فيه كل هذه البراهين .. فتؤمن بأني لم اخبرك بغير الحقيقة .

ــ عفوا يا سيدتي اذا ساورك الاعتقاد بأني ارتاب في كلامك ، كل ما في الامـر اني لم اتربى تربية ابناء الملـوك ، ولم اتعلـم غير ترويض الوحوش .

ولاذ بالصمت قليلا ليسألها بعد ذلك :

ــ ما اسم والدتي يا سيدتي ؟

فقطبت فوستا حاجبيها . وقالت بشدة :

— ان والدتك تدعى اليصابات الفرنسية شقيقة الملك هنري الثالث ملك فرنسا ، وزوجة الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا .

★ ★ ★

اخذ العرق يسيل من جبهة الشاب وسألها :

— اذا كان الامر كذلك ، فما السبب في اهمال والدي لي ولماذا نصب أبي زوجته العداء وكان السبب في موتها ؟ الا ان تكون قد اجرمت نحـوه .

— لقد كانت امك زوجة شريفة .. وعندي ما يثبت لك ذلك .

— اذاً لماذا عاملها ابي هذه المعاملة السيئة .

— لانه كان غيـورا ، وكان غيورا من ابنه البكر الدون كارلوس الذي مات في ريعان الشباب ، حتى انه اتهم زوجتـه التي هي امك بحب ابنه ، فكان ما كان من سوء اخلاقه ، وسوء معاملته لها .

ولما كان الشاب يجهل قصة الخلاف الذي نشب بين والدته وزوجها الملك فيليب ، فقد صدق كل ما قالتـه فوستا له ، وازدادت نقمتـه على الملك الذي كان سببا في المآسي التي اصابته هو واصابت امه ايضا .

ومضى يسألها عن السبب في اهتمامها به ؟ فأجابتـه ، بأنها اطاعت عواطفها الانسانية ، وانها لما رأته انقلب ذلك الميـل الى حب ، فقررت مساعدته والعمل على ان يعود اليه حقا .

ولما شاهدت اهتمامه بحديثها ، واستمعت الى شكره لها على عطفها وعنايتها به مضت تقول :

— انت فقير لا اسم لك لتعرف به ، وليس في وسعك القيام بعمل

خطير ، رغما عن شهرتك الشعبية الواسعة .. لانك لا تملك المستندات التي تؤكد نسبك .

« كما لا تملك المال الذي يمكنك من جمع الرجال والاعوان الذين يؤيدونك .. فهل انا صادقة فيما اقوله ؟ » .

ـ نعم يا سيدتي .. ولكني لا اجد الفقر ثقيلا عليّ ، ولا يهمني المجد والفخار ، ولو اردت قبول كل الهدايا التي تقدم الي بعد مصارعتي للثيران لكنت من كبار الاغنياء .

فقالت :

ـ هذا معلوم عندي ، ولكن من كان مثلك لا يجب ان يظل حياته خاملا فقيرا .

ـ ليس مما يهمني تغيير حالي ، فاني راض بحالتي هذه سعيد بها .

فذعرت فوستا من هذا الجواب ، وخشيت ان يكون مثل باردليان عازفا عن الامجاد .

وقالت له بشدة :

ـ ولكنك لا تستطيع البقاء على هذا الحال الى الابد .. خصوصا وانك اذا ظهرت غدا في مصارعة الثيران قتلـوك .. اذا لم امد انا يدي لانقاذك .

فابتسم الشاب وقال :

ـ اني استطيع الدفاع عن نفسي .

ـ ولكنك نسيت ان الذي يريد قتلك هو القـابض على العرش ، وانك لن تستطيع شيئا امام المئات من الجنود المسلحين .

« واذا افترضنا المستحيل ونجوت منهم دبروا لك مكيدة اخـرى حتى يقبضـوا عليك .. او يأخـذوك الى المحاكمـة ويحكمون عليك بالاعدام .

ـ وما هي التهمة التي سيحكمون عليّ بالاعدام بها ؟
ـ يتهمونك بأنك تحب فتاة هرطوقية ، كهذا المسكين الذي سمعت احتجاجه منذ قليل .. قبل ان يلقوا به في المحرقة .

★ ★ ★

اصفر وجه الشاب وقال :
ـ هل بلغ حقدهم عليّ الى هذه الدرجة ؟
ـ لقد قرروا القضاء عليك ولا سبيل الى انقاذك منهم .
وقال الشاب ببرود :
ـ اذا كان الامر كذلك فسأهرب وأغادر اسبانيا .
فابتسمت فوستا وقالت :
ـ حاول ان تخرج من احد ابواب المدينة .
ـ لي اصدقاء استطيع الاعتماد عليهم .
ـ انكم لن تستطيعوا الوقوف في وجه المئات من الجنود مهما بلغت شجاعتكم .
ادرك الشاب من وجهها انها مقتنعة بكل ما تقوله ، فسألها :
ـ ما الذي يجب عليّ عمله ؟
ـ قبل ان اجيبك على هذا السؤال اريد ان اعرف اذا كنت تريد الحياة ام لا ؟
ـ ان لي من العمر عشرين سنة ، ومن حقي ان اسعد بحياتي .
ـ هل انت مستعد للدفاع عن نفسك ؟
ـ كل الاستعداد .. متوسلا بكل الاسباب والوسائل .
فقالت :
ـ اذاً .. فقد استطيع مساعدتك وانقاذك .. ولتعلم انك اذا أردت النجاة من الخطر الذي يهددك فعليك اولا ان تضرب الذي قد يسبب لك الاذى والموت .

واتنصب الشاب مذعورا وهو يقول :
ـ ما هذا الكلام .. اتطلبين مني ان اقتل الملك .. ابي ؟.
فقالت :
ـ لو كنت مكانك لما تركت امي تقتل ظلما وعدوانا دون ان أثأر لها .
ـ امي .. امي .
ـ نعم امك التي ماتت مقتولة .. والذي قتلها هو نفسه الرجل الذي يريد قتلك الآن .
ـ ويلاه .. كيف امد يدي لقتل ابي .. اني مستعد لقتل الملك.. ولكني لا استطيع ان اقتل ابي .
ادركت فوستا ان عليها ان تبدل هذا الموضوع قبل ان يفلت الشاب من يدها فقالت له :
ـ ومن الذي ذكر لك مشروع القتل ؟
فجمد في مكانه وقال :
ـ لقد خيّل اليّ انك ذكرت شيئا من هذا .
فتنهد الشاب بارتياح وقال :
ـ افصحي لي عن غايتك .
ـ لقد كان باستطاعة والدك ان يجرك الى المحاكم لتحكم عليك ، ولكنه خشي ألسنة الناس ففضل سلوك هذا السبيل ، ليبقى سبب موتك مجهولا عند الجميع .
ـ ولكني لا اعمل على ايذائه ولا ادعو احدا للثورة عليه .
ـ انك تستطيع ان تهدده باذاعة السر الذي يحاول كتمانه ، ولهذا يريد القضاء عليك .. ولكي تدافع عن نفسك عليك ان تعلن هذا الخبر على الملا من الناس ، وانا مستعدة لتقديم المستندات التي تثبت نسبك ،

وحقك الشرعي في العرش •• ولا يجب ان تمضي ايـام حتى تعرف كل اسبانيا بأنك الوريث الشرعي للعرش الاسباني •

« وان يعرف الناس المعاملة الجائرة التي يعاملك الملك بها ويريد قتلك •• كما قتل امك الطاهرة » •

فقال الشاب :

ــ اذا كان الامر كذلك فأنا مستعـد لمصارحـة النـاس بحسبي ونسبـي •• ولكن هل تعتقدين اني أنجـو من غضب الملك اذا اعلنت للشعب سر مولدي ؟

ــ بالتأكيد ، لان الملك لا يعود يجسر على قتلك •• بعد ان يعرف الناس انه والدك •• ولا يبقى امامه الا ان يقودك الى المحاكم لاثبات ما تدعيه ، فتقـدم عندئذ المستندات التي سوف امدك بها ، فلا يسع الملك عندئذ الا الاعتراف بك ، وينادي بك الشعب الاسباني وليا للعهد ، ولا يعود امامك الا ان تنتظر ارادة الله ليأخذ الملك اليه •

وذعر الشاب عندما سمع هذا الكلام وقال :

ــ رباه •• ماذا اسمع ؟

فقالت فوستا :

ــ ان ما قلته لك سوف يتم على النحو الذي اتصوره ، فالملك كما تعلم متقدم في السن ، وايامه معدودة ، ومن يدري فقد يتنـازل لك عن العرش ايضا •

وقال التوريرو بهدوء :

ــ قد تستغربين قولي اذا قلت لك اني اريد له حياة طويلة •

فابتسمت فوستا واخذت تفكر •

لقد اقنعته الآن بحقه في العرش ، ولم يبق امامها الا ان تقنعه بالتخلي عن جيرالدا ، وهو الامر الصعب كما كانت تعلم •

★ ★ ★

مضت في حديثها تقول :

ــ ولتعلم ان الجند سيطوقون المدينة غدا •• ثم يحصل عراك هائل بين الجنود وأفراد الشعب ، وتموت انت في هذا العراك ، فينسب موتك الى الصدفة والقدر ، ويظهر الملك وكأنه بريء من دمك •

« هذه هي خطة الملك واسبينوزا مستشاره المرعب •

« واما انا فقد اتخذت احتياطات لمواجهة هذا الموقف ، وسأضع حولك لحمايتك ومقاومة الملك •• رجالا اشتريتهم بالمال » •

سألها :

ــ ما الذي يدعوك الى كل هذه التضحيات في سبيلي ؟

ــ ستعرف ذلك قريبا •• ولتعلم اني لم اهمل شيئا ، فسينضم الى جيش النبلاء والاشراف الذي أنشأته لحمايتك جيش آخر من الشعب ، سوف يسرع لمساعدتك والدفاع عنك حين يعلم بأن التوريرو المصارع الشهير مهدد بالخطر ، وانه ليس غير ولي عهد المملكة الاسبانية ، ولا يلبثوا ان ينادوا بك ملكا عليهم باسم الملك كارلوس •

« فلا يجسر الملك فيليب عندئذ على المضي في عدائك ، بل سيضطر الى مجاملتك واسترضائك •• وستخرج من هذه المعركة ظافرا ناجحا •

« واذا اردت انت فلا يمر اسبوع واحد حتى يقبض على الملك ويسجن في احد الاديرة ، وتنصب انت ملكا مكانه ، وقد ارسلت في الوقت نفسه رسلي الى الاقاليم •• وامرتهم ببذر المال في هذا السبيل ، حتى تؤيدك كل المناطق والولايات » •

ذهل (التوريرو) عندما سمع تفاصيل هذا المشروع المرعب •

ولم يعد يدري اهو في يقظة ام في منام •

وقال :

ـ اكون من المجانين اذا رفضت مشروعك ، ولكن ما فائدتك انت من كل هذه التضحيات التي تقدمينها اليّ ؟

واجابته فوستا بهدوء :

ـ فائدتي ان اشاركك في مجدك وسلطانك •

ـ انك لم تطلبي كثيرا •

ـ وهذه المشاركة تقضي بأن اكون زوجتك •

قفز التوريرو من مكانه لما سمع هذا الكلام ، لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الاقتراح ، وأخذ ينظر الى فوستا بذهول ودهشة عظيمين •

وقال اخيرا :

ـ انت تريدين الزواج بي يا سيدتي ؟

فقالت بعظمة ودلال :

ـ ولِمَ لا ، ألست جميلة واميرة ؟

ـ انت اجمل من رأيت ولكني لست من الذين يبيعون قلوبهم بعد ان اعطوها لواحدة احبوها •

ـ على الملك ان يتناسى حبه السابق •

وأراد (التوريرو) ان يتكلم ولكنها اسكتته •• وقالت •
ــ الافضل ان تفكر في الامر مليا ، وسنجتمع غدا لاسمع جوابك
•• ولتعلم اني اذا رفعت يدي عنك فانت هالك •
وغادر (التوريرو) القصر كأنه في حلم من الاحلام •

★ ★ ★

بقيت فوستا في مكانها تفكر في موقفها •• وتفكر فيما سيكون عليه جواب الشاب لها •

كانت في قرارة نفسها تعتقد ان ما وعدت به هذا الشاب الخامل من الملك والسلطان لا بد ان يفرض عليه التضحية بالفتاة التي يحبها ليصل الى الامجاد ، والعرش والحياة •

وقرعت جرسا •

فأسرع اليها كريستوبال فافضت اليه بأوامرها الاخيرة •• وامرته بتنفيذها في الحال •

ولما اصبحت وحدهـا ، ذهبت الى غرفة عملهـا ووقفت امام دُرج سري ، ففتحته واخرجت منه كتابا على ورق الغزال فتأملته مليا قبل ان تضعه في صدرها •• ثم قالت :

ــ لم يبق هناك سبب يدعوني الى الاحتفاظ بهذه الوثيقة •• ومن الخير ان اسلمها لاسبينوزا ، وبذا أصيب عصفورين بحجر واحـد • فأحصل على ثقة المفتش الاعظم والملك ، فلا يرتاب احد منهما بمؤامرتي هذه •

« واما النفع الذي سيجنيه فيليب الثاني من هذه الوصية فسيعود الى خلفه الذي سيكون زوجي » •

وتذكرت بارداليان في هذه اللحظة •

وكيف انه يريد الوصية ايضا ليعود بها الى ملك فرنسا ٠
وقالت في نفسها :
ــ لا بد ان ينتحر اذا عرف اني سلمتهـا الى اسبينوزا ، وانه لن يحصل عليها بعد اليوم ٠

ثم تذكرت ولدها من بارداليان ٠٠ وقالت في نفسها :
ــ ترى اين هو الآن ؟
« واين هي ميرتيس خادمتي المخلصة ؟
« لقد حان الوقت للبحث عنها وعن الطفل الصغير » ٠
ثم قرعت جرسا ثانيا ، وطلبت من وصيفتها ان تأمر عربتها بأن تكون على استعداد ٠

وبعد دقائق كانت في طريقها الى القصر الملكـي ٠٠ حيث اجتمعت الى اسبينوزا . واتفقت معه على بعض الشؤون ، ثم سلمته الوصية التي كتبها الملك هنري الثالث ملك فرنسا ، والتي يعين فيها الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا . ملكا على فرنسا بعده ٠

- ٧ -

سياسة القتل والاغتيال

غادر التوريرو المنزل الذي اجتمع فيه الى فوستا ، متوجها نحو النزل حيث بارداليان وجيرالدا .

وكان يسير مسرعا غير مبال بالمارة الذين كان يصطدم بهم بين وقت وآخر .

لقد كان يشعر في قرارة نفسه بأنه معرض لمصاب قريب .. وان حبيبته معرضة لمثل ذلك فكان يسرع والحالة لعله يصل الى المنزل بأقصر ما يكون من الوقت ليطمئن باله ويهدأ روعه .

وتذكر وهو في الطريق ما قالته له فوستا عن مولده .

وعاودته الشكوك فيما سمعه .

فقد كان ما سمعه من فوستا .. يخالف كل ما سمعه من الآخرين..

حتى لقد راح يقول لنفسه :

— لا بد ان تكون فوستا مخدوعة فيما سمعته عن مولدي ونسبي.

وضحك حين تذكر العرش الذي وعدته فوستا به .

هل كان من الممكن ان يصل هو مصارع الثيران الى العرش ؟

واما اذا كانت فوستا صادقة في تحذيري من الملك ورغبته في قتلي.
فما عليّ والحالة هذه الا الفرار من اسبانيا ، انا وجيرالدا ، بعد ان اطلب من باردليان ان يصحبني معه الى فرنسا .

وهناك استطيع الحياة بشرف وسعادة .

واخيرا وصل الى النزل ، وتقدم الى غرفة (حنة) الحسناء ، فشاهد (جيرالدا) فسرّي عنه ، وعادت اليه طمأنينته .

كما شاهد الفارس باردليان جالسا يشرب زجاجة من الخمر المعتقة.

وكان الفارس قد استيقظ من نومه بعد مغادرة (التوريرو) النزل لمقابلة فوستا .

واقبلت عليه في هذه اللحظة (بربارة) الخادمة تخبره بمغادرة (التوريرو) النزل .. وتسأله عن لسانه حماية حبيبته جيرالدا .

وهز الفارس رأسه . وارتدى ثيابه ، وامسك حسامه ، ونزل الى غرفة حنة حيث جلس يشرب كأسا من الخمرة كما قدمنا ، ويحرس حبيبة صديقه الشاب .

وقد جلس في الغرفة في مكان كان من الصعب على احد ان يدخل اليها دون ان يمر به .

ولما شرب قدحه الاول سأل عن صديقه القزم فقالت حنة بمكر :

ــ هل تعتبر القزم صديقك حقا ؟

ــ اني لا اتكلم الا حقا ، فان اخلاقه وتضحيته في سبيل اصدقائه تؤهلانه ليكون من اصدقائي ، وهم قليل بالتأكيد .

فقالت حنة :

ــ وما الاعمال المدهشة التي قام بها ، والتي تمتدحه لاجلها وتقر به .

فقال باردليان باسما :

ـ سوف اطلعك عليها في الوقت الملائم .
« ولكني اريد الآن معرفة السبب الذي دعاه لهذا الغياب » .
فقالت حنة :
ـ لقد ضايقني فطردته .
فقال :
ـ ما الذنب الذي ارتكبه ؟
ـ انه لم يرتكب ذنبا ولكنه على جانب عظيم من البله والحمق .
ـ بالعكس انه ذكي ماكر .. ولا بد ان طـردك له يعود لسبب آخر .
فقالت حنة :
ـ ما عليك .. انه يستطيع العودة من النافـذة اذا طردتـه من الباب .
فقال لها باردالیان :
ـ الا تعلمين يا عزيزتي .. انه ليس هناك شخص سواك يصبـر القزم على معاملته له بهذه الشدة .. ومهما يكن الذنب الذي ارتكبه .. فاني التمس العفو عنه .
والواقع ان حنة كانت لا ترد لبارداليان طلبا .. بل انها كانت ترجو من قرارة نفسها ان يكلفها بأمر لتعمل على تنفيذه حالا .
فلما سمعت كلامه هذا ، أمرت الخدم بالبحث عن القزم حالا .

★ ★ ★

كانت (جيرالدا) تعلم ان التوريرو قد ذهب لمقـابلة فوستا ءالتي زعمت لجيرالدا انها تعرف نسبه وحسبه واسم والده وامه .

واما بارداليان فقد كان واثقـا ان التوريرو لم يكن ليترك حبيبته وحدها لولا اضطراره لهذه الزيـارة ، فلما شاهـده مقبلا سر لعودتـه وسلامته •

وبعد ان سلم الشاب على (جيرالدا) وحنة ، اخذ بارداليان جانبا ، واخبره ان منزل السرو هو ملك لاحدى الاميرات •

وكان بارداليان طبعا يعرف انه لفوستا ، ولكنه كتم الخبر في نفسه، واصغى لما يقوله صديقه ، حتى قال له الشاب بعد ان قص عليه ما سمعه من فوستا :

ــ لو سلمنا جدلا بأني ابن سيد عظيم ، فكيف يعقل ان اكون من ابناء الملوك ووريثا لعرش اسبانيا ؟

فقال بارداليان باسما :

ــ لست ارى في الامر شيئا مستحيـلا ، وانت وايم الحـق جدير بالعرش اكثر من فيليب الثاني •

ــ هل يمكنك ان تصدق هذه الاخبار ؟

ولم يتبدل وجه الفارس وقال لصديقه :

ــ ما الذي يمنعني من تصديقها ؟ الم تصدقها انت حين سمعتها ؟

واخذا يتحدثان فيما سمعه (التوريرو) من فوستا ، والشاب يؤكد ان الامر لا يمكن ان يكون كذلك ، وان هذه الاخبار لا تعدو ان تكون اشاعات لا اساس لها من الصحة ، اذ كيف يعقل ان يكون ابنا شرعيـا للملك من ام لاذنب لها ، وان يلاحقـه الملك بعدائـه حتى اضطر بعض المخلصين الى اخفائي وتهريبي من وجهه ، ويربونني بعيدا عن البـلاط لينقذوا ولي العهد من الموت •

فقال بارداليان :

ــ اني لا اعجب من شيء يصدر عن الملك فيليب المشهور بغرابة طباعه وسرعة غضبه .

وهز (التوريرو) رأسه يفكر فيما سمعه من تعليق صديقه على حديثه وقال :

ــ ان الذي اعتقده ان ولادتي كانت نتيجة هفوة لا تغتفر ، فكان ان وقف والدي يناصبني العداء .. ولو كانت ولادتي صحيحة ؟وكنت أنا في الحقيقة ولي العهد ، فما معنى هذا العداء الغريب الذي لا معنى له ؟

وكان بارداليان يعرف سر ولادة صديقه التوريرو ، وقد سمعها من (سرفانتس) فلاذ بالصمت معجبا بدقة تعليله .

ومضى الشاب يقول :

ــ ولنفرض اني كنت في الواقع ابنا حقيقيا للملك .. وهو ما اشك به لاني اكرهه ، قبل ان اعرف بأبوته لي ، ولم يتغير كرهي هذا له بعد المعرفة ، ولو استطاعت (فوستا) ان تقدم لي كل المستندات التي تؤكد صحة نسبي لفضلت الهرب من البلاد على العرش .. والفقر على الثروة .

« ولا اكتمك انهم عرضوا عليّ الملايين لاثير البلاد ضد الملك ، ويريدون مني ان اقود جيشا لمحاربته ، حتى اذا تمكنت منه اجبرته على الاعتراف رسميا بأني وريثه الشرعي » .

فسأله بارداليان :

ــ وهل قبلت هذه العروض ؟

ــ كنت افكر في قبولها .. عندما عرضت عليّ فوستا شرطا جديدا ، وذلك ان تشاطرني ثروتي ومجدي مقابل هذه الخدمات التي سوف تقدمها لي ، وان تكون اخيرا زوجتي .. وعندئذ تذكرت (جيرالدا) الحسناء ، التي احبتني حين كنت فقيرا معدوما ، وادركت انها ستكون

معرضة للخطر واذا كنت سأقبل العرش ، فلن يكون هذا الا على جثتها والتضحية بها .. فخجلت من نفسي ..

— وهل رفضت شروط الاميرة ؟

— لم يكن عندي الوقت اللازم لرفضها ، لانها طلبت مني ان ادرس الموقف وان انقل اليها جوابي بعد غد .

— وما سبب هذا التأخير والتأجيل ؟

— لقد زعمت ان هناك حوادث خطيرة ستجري ، وسيكون لها تأثير على افكاري .

وكتم التوريرو عن صديقه ما سمعه من فوستا ، عن عزم الملك وحاشيته على القضاء عليه ، وحسب انها قد بالغت في الوصف والتحذير.

ولكن باردليان كان قد سمع فوستا في المؤتمر السري تتحدث الى المتآمرين بقصة المؤامرة على التوريرو ، وتطلب منهم مساعدته والدفاع عنه .. فازداد حبه لهذا الشاب الذي كتم عنه قصة الخطر الذي يتعرض له ، حتى لا يشاركه في مصائبه ومشاكله .

ومضى الشاب يقول :

— انه سيبلغ فوستا عند اجتماعه بها بأنه يرفض العرش والزواج بها ، وانه يفضل الفقر وجيرالدا على العرش والثراء .. وكل ما اطلبه منك يا سيدي الفارس ، هو ان تأخذنا معك الى بلادك الجميلة (فرنسا) .. بعد ان اصبح هواء هذه البلاد لا يناسبنا .

فقال باردليان :

— سوف اكون انا مدينا لك اذا تفضلت بمرافقتي الى بلادي .

فقال التوريرو :

— بقيت مسألة اخرى . اريد مساعدتك فيها ، وهي انه اذا نزلت

بي مصيبة او مكروه ، فأرجوك ان تتولى (جيرالدا) بحمايتك حتى لا تتعرض للقتل والتعذيب ، فهل تعدني بذلك ؟

ــ اني اعدك بذلك ، وستكون خطيبتك بمثابة شقيقة لي .. والويل لمن يتعرض لها بأذى او مكروه .

« ويهمني ان تعلم بهذه المناسبة انك احسنت في رفضك طلب فوستا ، فأنت لست بالتأكيد ابن الملك فيليب الثاني ، واما كيف عرفت ذلك فسوف تعلمه في المستقبل .. وعليك ان تعدل عن التفكير بقتل فيليب الثاني ، لان عملك هذا يعتبر جريمة لا تغتفر .

« ولكني في الوقت نفسه انصحك بمغادرة اسبانيا ، لان نسبك قد يسبب لك بعض المشاكل ، لانك في الواقع صاحب نسب رفيع ، وقد عرفت سرك صدفة ، والذين يعرفون هذا السر قليل ، وسأطلعك على هذا السر عند وصولنا الى فرنسا » .

وافق (التوريرو) على الانتظار ، وتم الاتفاق بين الرجلين على ان يحضر الاول حفلة مصارعة الثيران ، ويشارك فيها بعد ان دعاه الملك اليها ، خصوصا وانه في حاجة الى المال ، وهذه الحفلة تدر عليه بعض العطايا والهدايا ، فيبيعها وينفقها على حاجاته .

فقال باردليان :

ــ اذا كان الامر كذلك فسأذهب انا ايضا الى هذه الحفلة ، لاشهد مصارعة الثيران .

* * *

لحظ بارداليان وهو في طريقه الى ساحة سان فرنسيسكو حركات مريبة .. وان لم يفطن الى ان هناك راهبا كان يتأثر خطواته ، وان هذا الراهب كان يلقي اشارة الى كل شحاذ وكل عابر سبيل يراه في طريقه .

واذا كان بارداليان لم يلاحظ تأثر الراهب له وحركاته ، فقد لحظ في الطريق ان الجند قد سدوا جميع المسالك ، ووقفوا حول الساحة كأنما يتأهبون لعمل خطير ، كما لاحظ في الوقت نفسه جماعة آخرين يرتصدون حركات الجند ، ويتأهبون لمنازلتهم عند اللزوم ، فأدرك انهم اعوان فوستا الذين اتفقت معهم في الاجتماع الذي عقد تحت الارض في قصر السرو على مساعدة الدون سيزار (التوريرو) وتأييده عندما يحاول اعداؤه قتله .

ولما فطن بارداليان الى كل هذه الاستعدادات مد يده الى سيفه ، ليتأكد منه ، فاذا به يجد ان السيف الذي يحمله غير سيفه ، فدهش وسأل نفسه .. من الشخص الذي ابدل سيفي ، ولكنه لما هز السيف ووجده قويا اطمأن الى ان باستطاعته الاعتماد عليه والمدافعة عن نفسه ، فلا ضرورة والحالة هذه للعودة الى النزل ، والبحث عن سيفه الاصلي .

وكان (التوريرو) في الوقت نفسه قد لحظ ان خيمته التي ينصبها عادة في ركن من اركان الساحة ، والتي كانت متواضعة لا تقارن بخيم النبلاء ، قد شاركه شخص آخر في ارضها ولم يكن هذا الشخص غير ذي اللحية الشقراء الذي كان يحب جيرالدا ، ويريد خطفها .

وكان كريستوبال بأمر من فوستا قد حرّض ذي اللحية على خطف الفتاة والهرب بها ، وأوهمه ان بارداليان يحبها ، وان خطفه لها سيعذب خصمه فسر صاحب اللحية بذلك وقرر خطف الفتاة والتمتع بها ثم قتلها لعل بارداليان يقتل نفسه حين يشاهدها ميتة بعد ان فقدت عفتها .

وكانت فوستا في الوقت نفسه قد اتفقت مع المفتش الاعظم بعد ان

سلمته الوصية ، على الجلوس في الشرفة المخصصة للملك ، وان لا يمنع شخص من الوصول اليهـا في اثناء المصارعة مهما كانت هيئتـه وهوان ملابسه •

وقد ارتدت فوستا لهذه المناسبـة ثياب حاجب شاب ، ووقفت بين اسبينوزا والملك ، فكان هذا يلاطفها ، وذاك يتودد اليها ، مع ان المفروض في الحجاب ان يقفوا خلف الملك لا الى جانبه ، وان ينتظروا اوامره ، لا ان يتودد اليهم ويلاطفهم ••

ولما اقبل بارداليان على المسرح راح يحـاول الوصول الى المكان الذي خصصه له اسبينوزا عملا بنصيحة فوستا ، التي اكدت له ان هذا الرجل من الجرأة يقتحم كل خطر ، ولا يبالي ما يكون بعد ذلك •

ولم يكن وصول بارداليان الى مكانه بالامر الهين •

كان عليه ان يزاحم هذا ، ويدفع ذاك ، حتى علت اصوات المتذمرين منه ، دون ان يلقي بالا اليهم •• وبرقت عينا الملك باشعة الحقد لما شاهده مقبلا وهو يدفع الناس •• والتفت الى اسبينوزا فقا له هذا :

ـ دعه في شأنه يا مولاي الآن ، وسيأتي قريبا دورنا للثار منه •

وكانت حادثة بارداليان مع صاحب اللحية قد احدثت دويا في البلاط ، وقد حسده الكثيرون لفـوزه على اقوى رجل في اسبانيـا •• وسخط النبلاء على الملك لانه لم يعاقبه ، وسكت عنه •

ولما وصل الى مكانه فطن لنظرات الحقد التي كانت تتبعه ، وكان ان نفخت الابواق في هذه اللحظـة ، وهي الاشارة التي كان ينتظرهـا الحضور بفارغ الصبر ، لان حامليها ظنوا ان الحركة التي احدثها الملك بيده هي اشارة لهم بالابتداء في العمل •

وكانت هذه الاشارة في الوقت نفسه تحية لسفير جلالة ملك فرنسا، اذ ان الحفلة بدأت في اللحظة التي وصل فيها الى مقعده ، كأنما الملك كان ينتظر وصوله ، ليأمر بابتداء الحفلة زيادة منه في اكرامه واحترامه .

واستبد بالملك الغضب ، والتفت الى اسبينوزا وامره بالقبض على المسؤول عن نفخ الابواق ، وكان ان وقعت عيناه على عيني بارداليان فشاهد ابتسامته وسلامه له ، فاضطر الى الابتسام بدوره وهو حانق غاضب ، لان ما فعله كان مخالفا للخطة التي اتفق عليها مع المفتش الاعظم.

★ ★ ★

وكان الملك واسبينوزا قد اتفقا على القبض على التوريرو وبارداليان، لان الملك كان يلاحق حفيده منذ عشرين سنة ، ويريد القضاء عليه ، ليحفظ لابنه عرشه ، ولما ظهر بارداليان على المسرح ، وصادق (التوريرو) وتغلب على ذي اللحية رجل الملك الخاص .. اصبح حقده على بارداليان اشد من حقده على حفيده .

واما اسبينوزا فقد كان يخشى بارداليان ويخافه ، ولما شاهده يصادق التوريرو حكم عليه انه عارف بسره ولهذا قرر القضاء عليه ليظل هذا السر مكتوما .

وكذلك اتفق الرجلان على قتل بارداليان والتوريرو ، الملك لحقده عليهما ، والثاني لخوفه من سر الاول ، وبطولة الثاني ، ولكنهما اختلفا على الطريقة ، فقد كان الملك يعتقد انه يكفي اصدار الامر بالقبض عليهما ليتم ذلك في سهولة ويسر .

واما اسبينوزا فكان يرى ان الامر اخطر وادهى ، بعد ان صورت

فوستا له بارداليان بصورة رجـل غير عادي ، ولهذا وضع خطة رهيبـة بالاتفاق مع فوستا تضمن له النجاح بالتأكيد ، وقد وافق الملك على هذه الخطة اخيرا .

وتم الاتفاق بين الاطراف الثلاثة على ما يختص ببارداليان ان ينفذ اسبينوزا دوره في الخطة .. وان يترك الباقي لفوستا .

وقد قررت فوستا ان تسلم عدوها لاعدائه بعد ان فشلت في الوصول اليه وقتله .

والامر الادهى والامرّ .. ان بارداليـان والتوريرو ، لم يكونـا يتوقعان شرا لجيرالدا الحسناء .

لقد حسبا ان اعداءهما سوف يحاولون الفتك بهما وان احـدا لن يفكر بجيرالدا ، او سيحاول الاساءة اليها .

وذلك ان بارداليان لم يسمع حديث فوستا بعد ان غلب رجالها ، وغادر القصر الى الخارج .. ولو فعل لكان له موقف آخر .. ولتولاه هم شديد .